رابطة العالم الإسلامي
الأمانة العامة
الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

العلاقة بين
الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى

إعـداد

الدكتور مصطفى عطية جمعة جودة

الأستاذ في كلية التربية بجامعة الكويت

مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر

الثقافة الإسلامية.. الأصالة والمعاصرة

الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٤ - ٦ / ذو الحجة / ١٤٣٥ هـ
٢٨ - ٣٠ / سـبتمبر / ٢٠١٤ م

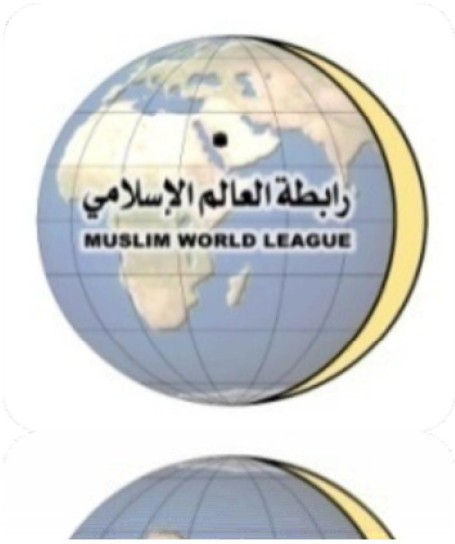

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩- الفاكس: ٥٦٠١٣١٩-٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطة - مكة، تلكس: ٥٤٠٠٠٩ و٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إننا نمتلك ثقافة إسلامية عظيمة راسخة قوية، وهذه هي الحقيقة التي لا مراء فيها، ومن العبث أن ينظر البعض إلى ثقافتنا نظرةً يائسة، فيراها ضعيفة خائرة، ويتخيل النهضة الإسلامية القادمة بمقاييس الحضارة الغربية، وينادي علناً أو مستتراً بأن يحذو حذو أوروبا أو أمريكا، إنه إحساس بالهزيمة المعنوية الفكرية التي تنتقص ما عنده من حضارة وثقافة راسختين، ثم يتعلق بوعي أو بسذاجة بما عند الآخر القوي الغالب، ولعل هذه كانت مشكلة الجيل المثقف النخبوي الذي درس في الغرب أو على نهج الثقافة الغربية، ولم يكلف نفسه عناء التأمل في نهج الثقافة الإسلامية في حاضرها وتاريخها.

صحيح أن الشعوب الإسلامية تأخرت عن اللحاق برَكب الحضارة المعاصرة كما يبدو للوهلة الأولى، ولكن الواقع يشير إلى آلاف مؤلفة من العقول المسلِمة التي تنتشر في جنبات الأرض، تخترع وتنجز وتبتكر وتضيف، فما ينقصنا هو الإرادة الحقيقية التي تستبدل الانبهار بما عند الآخر، إلى الاعتزاز بما عندنا، ثم تأتي النظرة الفاحصة الدارسة لما عند الآخر قبل أن تأخذ منه وتنهل مما يصدره، وبعبارة أخرى: إننا نعاني من هزيمة نفسية تنعكس على واقع سياسي متأزم، وشعوب فقدت بوصَلتها، وأفراد يَنشَطون لأنفسهم وليس لغاياتٍ أسمى ترتبط بدينهم وثقافتهم وأمتهم.

في ضوء هذا، تأتي هذه الدراسة؛ ساعية إلى الإجابة عن أسئلة عديدة تتصل بثقافتنا الإسلامية وعلاقتها بالثقافات الأخرى، لا تسعى إلى تقديم خطاب

عقيم يرفض أية ثقافة أخرى ما دام عقله وهواه لا يتقبلها -على غرار رفض الجديد- خوفاً من كونها جديدة عليه، دون دراسة ما فيها من إيجابيات وسلبيات؛ ولا لإظهار انفتاح عقلي وثقافي، يستوعب دون غربلة، خوفاً من أن يُتهم بالجمود.

إننا نسعى في هذه الدراسة إلى عرض مفاهيم ومكونات تتصل بالثقافة الإسلامية وحضارتها الزاهرة التي سادت العالم قروناً، ولم تكن جسراً معرفياً لحضارات أخرى، وإنما أنتجت دعائمها العلمية، وأخذَت من الآخرين ما يفيدها، وتركَت ما يضيرها، فاستحقت تميزاً في شجرة الحضارات الإنسانية، ومن ثم عمَد الباحث إلى استعراض علاقة الثقافة الإسلامية بالثقافات الأخرى منذ تكوينها؛ مروراً بحِقب تفاعلها بالسلب والإيجاب مع الثقافات الأخرى تاريخياً، وصولاً إلى عصرنا، متوخياً نظرة أشمل تدرُس كيف تعامل أسلافنا العظام مع الوافد من ثقافات الشعوب والحضارات السابقة عليهم أو المعاصرة لهم، فالقناعة الثابتة أن ما صلح به أوّلُنا سينصلح به آخرُنا، ولا يمكن القفز على تاريخ عظيم وثقافة متجذرة، وتجاهُل معطياتها تحت دعاوى اللحاق خوفاً من فوات الأوان، لأن القضية ببساطة أن التقدم لا يتم في سنوات ولا عقود، وإنما يحتاج إلى أن يأخذ مكانه ضمن دورة التاريخ ، فالثقافة الإسلامية تجري في ذواتنا الفردية والجمعية، وتمتزج بدمائنا، وتلتصق بمسامِّنا، فلا يعقل أن نغيّر جلدنا، ونلتمس من الآخرين سبلاً تقودنا، ونحن نعلم يقينا أن ديننا وحضارتنا وتراثنا فيه عصمة وهداية لنا، والله من وراء القصد.

تعريف الثقافة الإسلامية:

هي «معرفة مقومات الدين الإسلامي بتفاعلاتها في الماضي والحاضر، ومعرفة المصادر التي استُقيت منها هذه المصادر بصورة نقية مركزة»[١].

وهي أيضاً: «علم دراسة التصورات الكلية والمستجدات والتحديات المتعلقة بالإسلام والمسلمين بطريقة منهجية شمولية مترابطة»[٢].

ومن خلال التعريفين السابقين، نلاحظ أن الثقافة الإسلامية قوامها الإسلام، فتَجعله مرتكزها في العقيدة والسلوك والمعرفة، وتتخذه إطارا للرؤية الشاملة التي تستقبل بها المستجدات في الثقافة والفكر والعلوم بشكل منهجي وموضوعي، وقد أجمعوا على أن مصدرها الإسلام عقيدة وشريعة وقيماً وأخلاقاً، وهي التي تشكل ما تَرسَّخ في فؤاد المسلم، وشكّل وجدانه وتصوراته وقناعاته.

وهذا لا يمنع من وجود روافد أخرى للثقافة الإسلامية، كاللغة العربية وآدابها، والتراث والعادات والتقاليد، والمنجَز الحضاري الضخم على امتداد أربعة عشر قرناً، ولكن الأساس الجامع لكل هذا هو الإسلام: قرآنا كنص إلهي مقدس، وسنة نبوية، وعلوماً في خدمتهما، وهذا شأن كل حضارة مُزهرة، فجُل الحضارات في العالم المعاصر والقديم، تستند إلى الدين أو أساطير دينية أو ديانات وضعية، كالحضارة الفرعونية المصرية القديمة، وحضارة بابل وآشور العراقية، والحضارات الهندية القديمة، والحضارة الفارسية، والدين بالطبع غير بعيد عن الحضارة الغربية المعاصرة، رغم أساسها العلماني.

---

(١) الثقافة الإسلامية (المسلم وتحديات العصر)، محمد أبو يحيي، ص١٩.

(٢) السابق، ص٢١.

إن الثقافة الإسلامية تشكل الهوية الجامعة للأمة، والتي تتألف هويتها من عناصر ثلاثة: العقيدة بوصفها تقدِّم رؤية للوجود، واللسان المعبر، والتراث الثقافي الممتد عبر قرون وعصور طويلة[١]، وبالتالي فإن هناك تربة صلبة متوافرة في الأمة المسلمة، فمن العبث أن يتخيل إنسان أنه من السهل غزو الأمة بعلوم جديدة، دون أن تواجهها الهوية المستقرة، إنْ عاجلاً أو آجِلاً، وكثيرة هي المفاهيم والأفكار التي تسللت إلى الأمة، وظن أصحابها أنها انتشرت وتدعمت، وسرعان ما لفِظها العلماء والناس جميعًا، لأن الهوية ليست مسألة نظرية، وإنما هي ثقافة ووعي فردي وجمعي، فمن المستحيل وجود «نظام حاكم أو دولة لا يستند إلى دين أو إيديولوجية، حتى حَيدة القيم، وبالتالي العلمانية التي ترفض الدين، إنما هما عقيدتان أو مذهبان فكريان في رؤيتهما الفلسفية للوجود»[٢].

فالثقافة الإسلامية الأصيلة تختص بسمات عديدة، فهي:

- تُعنى بالبحث والتنقيب والظفَر بمعاني الحق والخير والعدل والجمال وغيرها من القيم التي تُصلح الوجود الإنساني، وتُهذّبه وتُقوّم اعوجاجَه، وتَجعل من مكونه المعرفي والعاطفي والسلوكي؛ اتجاهًا إيجابيًا فاعلاً في الحياة، فيغدو مُصلحًا مرتبطًا بقضايا مجتمعه وإدارة شؤونه إدارة صالحة، وتجعل من المعارف والعلوم التي يحذقها مادة انتفاع لخدمة الإنسانية.

- **أخلاقية**، تربوية، تهذيبية، تقويمية: ذات منهجية تغييرية -وعيًا واتجاهًا وسلوكًا- تُفضي إلى انبعاثٍ حضاري يمتلك فيه الفرد والجماعة والأمة: الإرادة الخلاقة، والابتكار الفعال، والشعور بالمسؤولية، وحرية الاختيار.

---

(١) العولمة وعالم بلا هوية، د. محمود سمير المنير، ص١٤٦.

(٢) الإسلام كبديل، مراد هوفمان، ترجمة: غريب محمد غريب، ص١٣٧.

- **رسالية إنسانية**: بحكم ما تحمله من خطاب إلى الناس كافة، يبشر بالقيم العليا، وكل ما له صلة بالخطاب العمراني الحضاري، فهي توجب التبليغ على مَن وعَى من الحق وأدرك من المعرفة، وتضعه في دائرة الإثم إنْ هو كتَم علماً أو احتكر معرفة تفيد منها البشرية [١].

- **غاياتها فردية مجتمعية**: ترمي إلى الرقيِّ بالإنسان المسلم، وتجعل قيمته عالية في المجتمع الإنساني وتحضه على الإسهام فيه، وتزداد ذاتُه نُبلاً وتكيفاً بارتباطها بالجماعة والأمة بوصفهما أيضاً غاية في حد ذاتهما، فلا نجد فيها تعزيزاً للأنانية الفردية ولا المادية، ولا عنصرية النسب والجنس.

وأساسها الدمج المتساوق بين الدين والدولة، والشريعة والحياة، فالإنسان المؤمن الحق لا يقنع بالعبودية الانعزالية، ولا يعرف السلبية، ولا يمكن إقصاء الدين عن الحياة وتَرْك المجتمعات والأفراد تتجاذبهم المذاهب الغامضة المخترَعة، التي لا تجد عقيدة ولا ديناً صحيحاً يواجهها [٢].

- **عمرانية للأرض**: فالله تعالى خلق العالم لنتمتع به، وسخَّر المخلوقات لخدمة الإنسان، وهي قابلة للتحول حسب رغباته وخططه، وعليه تنمية وتطوير الحياة والاستفادة من خيراتها وكنوزها ونعمها، وعمران الأرض بما هو نافع خيّر، فالمسلم مقتصِد يتحرك لعمارة الأرض بقيم وأخلاق عليا[٣].

---

(١) تأثير الثقافة العربية وإنجازاتها على الثقافات الأخرى، د. أحمد محمد الأصبحي، جريدة ٢٦ سبتمبر، العدد ١١٦٦، صفحة أدب وثقافة، السبت ١٤ / ٧ / ٢٠١٤م، ص٦.

(٢) الإسلام كبديل، ص١٣٨.

(٣) المصدر السابق، ص١٥١.

- **عقلانية المعرفة والنهج**: تجعل العقل سبيلاً لقبول المعرفة والرأي السديد والقبول بالدليل والبرهان، دون تعارض بين العقل والنقل، فلا يُلغي أيٌّ منهما الآخر... وهي ثقافة مبنية على الاجتهاد وشرعية الاختلاف والحوار، وتنبُذ التَّعصب والخرافات، وتأمر المسلمين بدراسة السنن الكونية وقوانين الحياة.

فالقرآن الكريم جمَع في وصفه للعقل كلَّ ما احتواه من خصائص مثل الرشد والحث على التأمل والإدراك الصحيح للتصورات والمفاهيم، وأن العقل يقوم بواجب أخلاقي مع القلب والشعور [١].

- ثقافة تسامحية: تؤمِن بحوار الأديان والثقافات، ولا تُلغي الآخر، ولا تُكرهه على ترْك دينه ومعتقده، بل تَقبل بالتنوع الديني.

- **أنها ثقافة المستقبل**؛ لأنها ثقافة عمرانية عقلانية إبداعية ابتكارية تحديثية، تستشرف المستقبل بشعور المسؤولية تجاه الأجيال اللاحقة، فهي عملية إبداعية متجدّدة، تُبدع الجديدَ من خلال القرائح التي تتمثلها وتعبّر عنها، فالتفاعل مع الواقع تكييفاً أو تجاوزاً نحو المستقبل، من الوظائف الحيوية لها[٢].

- أنها تقوم على تحديدٍ لذات الإنسان وعلاقاته مع نظرائه، ومع الطبيعة ومع ما وراءها، من خلال تفاعله معها، وعلاقاته بها، في مختلف مجالات الحياة.

---

(١) التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، ص٦، ٧.

(٢) تأثير الثقافة العربية وإنجازاتها على الثقافات الأخرى، ص٦.

- أنها قوام الحياة الاجتماعية في المجتمع المسلم، فليس من عمل اجتماعي أو فنيّ جمالي أو فكري يتِمُّ خارج دائرتها، وهي التي تُيسّر للإنسان المسلم سبلَ التفاعل مع محيطه مادةً وبَشراً ومؤسسات.

- أنها إنجاز كمّيٌّ مستمر تاريخيـًا، فهي بقدر ما تضيف من الجديد؛ تحافظ على التراث السابق، وتجدّد قيمه الروحية والفكرية والمعنوية، وتوحّد معه هوية الجديد روحـًا ومساراً ومُثلاً، وهذا هو أحد محركات الثقافة الأساس، كما أنه بُعدٌ أساسٌ من أبعادها[١]، فالبعض في الشرق والغرب يشدد على مفاهيم خطأ، فهناك مفهومٌ إلغائي ينظر للحضارة الإسلامية على أنها ألغَت الحضارات السابقة وحلَّت محلها، وهناك مفهوم تحقيري يتبناه بعض الإسلاميين؛ يحتقر الحضارات السابقة على الإسلام ويراها حضارة جاهلية ولا يرى لها أثراً في حضارته، ونحن نعتمد المفهوم التفاعلي، فالحضارة الإسلامية في بعض مكوناتها: نتيجةُ تفاعلِ حضاراتٍ ازدهرَت في المنطقة في فترات تاريخية مختلفة[٢].

- أنها ثقافة تجمع الكثير من المشتركات بين الشعوب الإسلامية فيما يسمى الثقافة العامة السائدة، وتسمح بالتنوّع داخل المجتمعات العربية والإسلامية، بما يسمح بالتكامل الثقافي بدلاً عن الاختلاف والتعارض، فالوحدة الثقافية الناتجة عن التنوع والتكامل أفضل تكوينـًا، وأعمق أثراً

---

(١) الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، نشر المنظمة للتربية والعلوم والثقافة، (إيسيسكو) الرباط ١٩٩٧م، ص٥٢.

(٢) المجتمع العربي المعاصر: بحث استطلاعي اجتماعي، د. حليم بركات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤م، ص٥١.

من الناتجة عن تشابهٍ أو غمطٍ لآخرين، وفي الوقت نفسه لا تعارض الثقافة الفرعية مثل ثقافة البداوة والفِلاحة، والأقليات والجماعات والأقاليم[١]، ما دامت لا تتعارض مع أُسسها ومبادئها.

فمن المهم تعزيز أهداف الثقافة الإسلامية لدى عامة الناس وخاصتهم، والتي تستهدف تعميق انتماء المسلم لمصادر ثقافته الإسلامية (القرآن والسنة وعلوم الشريعة)، وإبراز النظرة الشمولية لنهج الإسلام في الحياة والعلوم، وإعطاء المسلم صورة وافية عما أعطَته رسالة الإسلام للناس عبر العصور، وتجلية موقف الإسلام من كل جديد ووافد، وإثارة العزة والكرامة في نفس المسلم وجعْله مواجهاً للعالم بثقافته المتميزة وحضارته وذاته الواثقة، وأخيراً تشخيص حالة الأمة ونواحي الضعف فيها[٢].

إن الأساس في الثقافة الإسلامية هو القرآن الكريم، فكثيرة هي الآيات التي تحض على إعمال العقل والتفكر في خَلق الكون، والاستفادة من الحكمة والعلوم المفيدة للإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقد أثنى المولى عز وجل على أولي الألباب في اثني عشر موضعاً في القرآن، وهم أصحاب العقول المفكّرة المتدبرة، وعرضَت في كل مرة نموذجاً من تفكير هؤلاء الراجحين في

(١) السابق، ص٥١، ٥٢، مع الأخذ في الحسبان أن هناك «ثقافة مضادة Counter –Culture» تدخل في صراع حاد مع الثقافة السائدة أو الثقافات الفرعية، وتتمثل في اتجاهات الرفض المنتشرة في أوساط النخبة والمبدعين والثائرين السياسيين، وبالطبع فإن قبولها يتوقف على ما تطرحه من رؤى متفقة أو مجددة أو مغايرة أو معارضة مع توجهات الثقافة الإسلامية.

(٢) انظر: مفهوم الثقافة الإسلامية وتحدياتها، صباح محمد جاسم، مجلة ديالي للبحوث الإنسانية، جامعة ديالي، العراق، العدد ٤٤، ٢٠١٠م ، ص٦٨٣، ٦٨٤.

عقولهم، ولاشك أن صاحب العقل المتدبر، المفطور على مبادئ الخير والقيم العليا، سيتلقى أيَّ علم إنساني مفيد بكل أريحية وتقبُّل، لذا فإن العقلاء الحكماء من البشرية - وإن كانوا غير مسلمين - يتفقون في منطلقاتهم بشكل عام، لأنهم يرومون الخير والصلاح لكل الناس، وإذا عُرض عليهم الإسلام بشكل صحيح؛ فإنهم إما أن يُسلموا أو يشيدوا به ويمتدحونه، ويعظمون حضارته[١].

وهذا ما يتفق مع التوجيه القرآني السامي عن قيمة العقل ووظائفه وخصائصه، فهناك العقل الوازع الذي يدفع الإنسان مبدئياً إلى التمييز بين الخير والشر من أجل النجاة من النار: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، ومن الآيات التي تركز على العقل بوصفه مرجعاً للهداية في ضمير الإنسان: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وهذا الخطاب يؤسس لدور العقل في الهداية التي هي مرتكز كل خير، وهناك إرشاد يوّجه العقل للاستيعاب الصحيح وتقييم المعارف والأمور، وكما نجده كثيراً في خطاب القرآن لذوي الألباب، يطلب التفكر والتدبر والاعتبار والنظر والذكر[٢]، ليكونوا من ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ

(١) على سبيل المثال: المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه التي سخَّرت حياتها لنشر الكتب عن الإسلام وحضارته، ثم أسلَمت في النهاية، ومراد هوفمان سفير ألمانيا في الرباط، صاحب كتاب (الإسلام كبديل) الذي أحدث ضجة عظيمة، وبالطبع العالم الفرنسي الشهير بوريس بكاي، الذي كان سبب إسلامه آية قرآنية عن فتق السموات، ومن قبل أشاد الأديب الروسي تولستوي بالإسلام وبمحمد ﷺ، والأديب البريطاني برنارد شو، وغيرهم كثيرون، والقضية تتصل بعرْض الإسلام وإيصال رسالته السامية، وتقديمه بوصفه رسالة، وفكراً، وخيراً، وقيماً، ومنظومة.

(٢) التفكير فريضة إسلامية، ص١٠، ١١.

﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

هذا مع التوكيد على أهمية الحكمة التي هي عطاء من الله سبحانه لمن رضي من عباده الطيبين، كما في قوله جل شأنه: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقد جاء تفسير الحكمة أنها: الإتقان في قول أو فعل، فكل ما ذُكر فهو نوع من الحكمة التي هي الجنس، فكتاب الله حكمة، وسنة نبيه حكمة، وكل ما ذُكر من التفضيل فهو حكمة، وأصل الحكمة: ما يُمتنَع به من السَّفه، فقيل للعلم حكمة؛ لأنه يُمتنَع به، وبه يعلم الامتناع من السفه وهو كل فعل قبيح، وكذا القرآن والعقل والفهم [١]، فالحكمة ترتبط بكل ما هو متقَن في الحياة، علماً وفعلاً وخُلقاً وقولاً، وبالطبع فإن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ المطهرة؛ هما المصدران الأساسان للعلم والحكمة للمسلم، لأنهما عمادا الثقافة الإسلامية، ومن خلالهما يتلقَّى المسلم سائرَ العلوم الإنسانية والشرعية والدنيوية.

فالآية الكريمة السابقة استُهِلَّت بالتشديد على أن الحكمة عطاء من الله، واختُتِمت بأن أُولي الألباب هم الفائزون بها إذا تذكّروا وعلموا، وعندما ننظر إلى المعنى العام للآية الكريمة، نرى أنها تفتح المجال واسعاً لأولي الفكر والتدبر وطالبي الحكمة والعلوم، كي يستفيدوا منها أياً كان مصدرها، وهو ما يؤكد عليه صاحب تفسير المنار بقوله: «إن الله جعَل الخير الكثير مع الحكمة في قرن، فهما لا يفترقان كما لا يفترق المعلول عن علته التامة.. فهو لا يحكم إلا بالدليل، فمتى حكم جزم فأمضى وأبرم، فكل حكيم عليم عامل مصدرٌ للخير الكثير؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، ج٣، ص٣٠٠.

أي وقد جرت سُنته تعالى بأنه لا يتعظ بالعلم ويتأثر به تأثراً يبعث على العمل؛ إلا أصحاب العقول الخالصة من الشوائب، والقلوب السليمة من المعايب»[١].

وهناك مَلمح آخر للحكمة يربطها بالعمل، حيث يقصَد بها: «العلم الصحيح (الذي) يكون صفة محكمة في النفس حاكمة على الإرادة؛ توجهها إلى العمل، ومتى كان العمل صادراً عن العلم الصحيح؛ كان هو العمل الصالح النافع المؤدي إلى السعادة، وكم من محصِّل لصور كثيرة من المعلومات خازنٍ لها في دماغه، ليعرِضها في أوقات معلومة؛ لا تفيده هذه الصور التي تسمى علماً؛ في التمييز بين الحقائق والأوهام، ولا في التفرقة بين الوسوسة والإلهام ؛ لأنها لم تتمكن في النفس تمكناً يجعل لها سلطاناً على الإرادة، وإنما هي تصورات وخيالات تغيب عند العمل، وتحضر عند المِراء والجدل [٢]، وهذه إضافة أخرى لمفهوم الحكمة التي هي قوام قبول المسلم لكل ثقافة وعلم جديدين عليه، فلابد أن يبني عليها عمل نافع مفيد لذاته ولقومه وأمته، فلا مجال لعلوم السفسطة التي تُلهي العقل، وتشتت النفس في الجدال، وتقعُد بالمرء عن العمل، فإن العلم لابد أن يكون مسبوقاً بمبادئ راسخة في النفس، تجعله يحكُم على الثقافة والمعرفة بشكل موضوعي».

والمراد بإيتائه الحكمة مَن يشاء: «إعطاؤه آلَتها -وهي العقل- كاملة مع توفيقه لحسن استعمال هذه الآلة في تحصيل العلوم الصحيحة ؛ فالعقل هو الميزان القسط الذي توزَن به الخواطر والمدركات، ويميِّز بين أنواع التصورات

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، للشيخ محمد رشيد رضا، ج٣، ص٦٥.

(٢) السابق، ص٦٤.

والتصديقات، فمتى رجحَت فيه كفة الحقائق؛ طاشَت كفة الأوهام، وسهُلَ التمييز بين الوسوسة والإلهام»[١]، فالعقل موطن الحكمة وآلَتها، وهو الميزان الذي يضعه المسلم في قبول سائر الثقافات والعلوم والمفاهيم، وبه يميّز بين حقائق الأمور وأكاذيبها.

فالعقل البشري ليس هو الذي يصنع مقومات التصور الإسلامي - كالفلسفة - إنما هو الذي يتلقاها من مصدرها الرباني، متجرداً من أية مقررات سابقة في هذا الباب (من ذاته أو من عقائد منحرفة)،أي يُدركها إدراكًا صحيحًا، وعليه أن يتقيد فيما يتلقاه بالمدلول اللغوي الصحيح[٢].

ولا مجال لاستقبال ثقافات أخرى إلا من خلال تصورات الثقافة الإسلامية وأُطرها ومبادئها، ومن الخطأ أن يقوم البعض- بانبهارٍ أو استلاب أو عن عمد - بترجمة ثقافات وعلوم أخرى، والاحتفاء بها وترويجها على أنها مفيدة عظيمة للمسلمين وأمتهم، دون أن يُعمل النظر والمنطلقات الإسلامية، فتكون المحصلة افتتان بعض المسلمين فارغي العقول والقلوب؛ بهذه العلوم وشيوعها فيهم.

فالتشديد على دور العقل في الإسلام؛ نتيجة منتظرة يستلزمها لُباب الدين، ويترقبها كل من عرف كُنْهَ الإسلام والإنسان في رسالته، فيتناسق جوهر الإسلام مع وصاياه، في دين منطقه سليم، يحاسَب فيه الإنسان بعمله كما فهِمه عقْله، ويُطلَب فيه من العقل أن يبلُغ وسعه من الرشاد[٣].

---

(١) السابق، ص٦٤.

(٢) مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، ص٤٥.

(٣) التفكير فريضة إسلامية، ص١٦، ١٧.

وعلى صعيد آخر، وفي إطار الرد على مغالطة يسقط فيها كثير من العلمانيين والمستشرقين ومَن سار على نهجهم، ألا وهي البحث عن مقابل إسلامي لما يجود به العقل في الثقافات الأخرى، وكأن من واجب الباحث في الفكر الإسلامي أن يبحث عمَّن يُعضِّد الفكرةَ المستوردة، فإنْ لم يجد بُغيته، فعليه أن يستوردها مباشرة على أنها علم مفقود، وأن الثقافة الإسلامية منقوصة.

والرد على هذه المغالطة يكون بالتأكيد على أن الثقافة الإسلامية تقدّم صورة متكاملة لا تُفهَم مجزّأةً وإنما بشكل مكتمَل، وكم من عقول مسلِمة سقطَت في التجزئة؛ لأنها افتقدَت الرؤية المكتملة، وكم من علمانيين ومستشرقين ظلموا الإسلامَ لأنهم بحثوا في جزئياته دون فهْم كلياته.

فنحن «لا نملك أن نقابِل - مثلاً- بين التصور الإسلامي للكون المادي أو للحياة الأرضية أو للوجود الإنساني، وبين أي تصور آخر لهذه المقومات يَفترض عدم وجود حقيقة إلهية، أو يفترض الشرك في ذات الله سبحانه كما يقول اللا أدريون (المثالون العقليون)»[1].

وقد رأينا أمثلة عديدة لمتشرّبي الفلسفة الغربية؛ أرادوا إسقاط قناعاتهم ومناهجهم على التراث الإسلامي العربي، دون أن يفهموا حقيقة مشتملاته واكتمال منظومته، فكانت النتائج فاسدة، والمحصلات واهمة، فمثلاً: مَن طبّق المنهج المادي أو العقلاني في قراءة التاريخ الإسلامي، وعدّه قمة العقلانية، فكانت الاستنتاجات مشوَّهة، لأنها أعْلت من عنصرٍ وتجاهلَت اللبابَ.

---

(١) المصدر السابق، ص٤٤.

وبالطبع نحن لا نقصد أصحاب القناعات الجامدة، ولا الأحكام المسبَقة الرافضة التي ترى كل جديد خبيثًا، وتتعامل مع كل وافد بالمنع، وإنما نقصد أهل العقل والحكمة من علماء الأمة، المُناط بهم النظر والتفكر والاعتبار، والاستفادة من الشعوب والحضارات والثقافات الأخرى.

أسس التعامل مع الثقافات الأخرى:

علينا تحديد مفهوم الآخر، وهو: كل ما يخالف الأنا، سواء كانت أنا فردية أو جماعية، فالأنا الفردية تعني أن الآخر:كل ما هو خارجها من أشخاص وإن تفاوتَت درجات القرب والبعد معهم. وإذا كانت جماعية؛ فهناك ذات جماعية تتمثل في الهوية والثقافة المشتركة، يقابلها آخر جمعي (أو آخرون جمعيون)، وتتمثل في مختلف الهويات والثقافات الأخرى على مختلف درجاتها.

فهناك سياقات ومستويات كثيرة تتقاطع مع الأنا سواء كانت فردية أو جماعية، وهي بدورها تُنتج عدداً كبيراً من صور الآخر، يَصعب أن يجمعها إطارٌ واحد قابل للتحليل أو التطبيق[١]، وهذا يجعلنا نتجه إلى التحديد، فالأنا الثقافية تَعني الثقافة الإسلامية بوصفها الإطار الكلي المشكّل للهوية الجماعية والفكرية والاجتماعية والثقافية للأمة، والهوية والمرجع للأنا الفردية، فهي تشمل الكل والجزء، العام والخاص، الفرد والجماعة، أما الثقافات الأخرى - ووفقًا للتحديد المطلوب- فتعني: مختلف الثقافات الجمعية المغايرة للثقافة الإسلامية الجمعية، بشرط أن تكون هناك مساحات للتلاقي والاحتكاك، بمعنى أن هناك ثقافات أخرى لا علاقة بينها وبين الثقافة الإسلامية بحكم بُعدها

(١) الأنا والآخر وهدم النمطية، د. محمد فايز الطراونة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج٢٧، العدد ٣، يناير / مارس ١٩٩٩م، ص٢٨٢.

المكاني أو الزماني، فالثقافة اليابانية – مثلاً – لم تكن هناك مساحة لالتقائها مع الثقافة الإسلامية قديماً بحكم التنائي، ولكن حديثاً يمكن أن تكون هناك مساحات للحوار والتبادل الثقافي، ونفس الأمر مع الثقافات القديمة المندثرة قبل الإسلام، كالحضارة البابلية والفينيقية والفرعونية، فلا علاقة لها مع الثقافة الإسلامية، لأنها اندثرت وبالتالي لا مجال للتأثير والتلاقي معها.

يتحدد مفهوم الثقافات الأخرى، بأنه الثقافات المغايرة، وفق مجالات التلاقي والتأثير والتأثر بينهما، الصادرة عن حضارات أو ثقافات أو مدنيات مغايرة، سواء قبل الإسلام كالفارسية واليونانية، أو معاصرة للحضارة الإسلامية في أوج مجدها، كالثقافة الهندية والصينية، أو الثقافات الحديثة مثل الثقافة الغربية أو الثقافات في دول الشرق الأقصى أو ثقافة شعوب أفريقيا والأقليات في العالم الإسلامي.

أما عن العلاقة بين الثقافة والحضارة، فبينهما عموم وخصوص؛ ففي بعض الاستعمالات تكون الحضارة أعم والثقافة أخص، وبِناءً عليه فلكل حضارة ثقافة وليس لكل ثقافة حضارة، وفي بعض الاستعمالات تكون الثقافة هي الأعم فيكون لكل ثقافة حضارة وليس لكل حضارة ثقافة، وينطبق هذا العموم والخصوص على علاقة الحضارة والمدَنية إذا اقترنتا بصفة أو أخرى.

ويمكن تحديد دلالة كل من الثقافة والحضارة والمدنية من أجل التمييز بين المفاهيم بالنظر في التالي:

إن الثقافة تعد بمثابة الأطر الذهنية للحضارة والمرجعية الفكرية للمدنية، والحضارة تتجسد في المنجزات المادية ومنتجاتها، فهي في المقام الأول جمعية مميَّزة، تتسم بالتقدمية، وتستوعب مفاهيم كثيرة مثل التهذيب والصقل والتقدم

الفكري والسياسي، أما المدنية فتتمثل في الأساليب التي تعمل بها المؤسسات الحضارية من النواحي الإدارية والقانونية وضبْط السلوك العام [١]، وتنتشر منتجاتها المادية بشكل أسرع بحكم تأثيرها، ولكنها تحمل في طياتها الثقافة التي أنتجَتها، كما أن منجَزها الفكري يتغذى من مرجعياتها الثقافية مثلما يُغذيها ويزيد عليها.

وبَناءً عليه تتضح الصلة بين الثقافة والحضارة والمدنية؛ فالثقافة تصبغ الحضارة والمدنيةَ بصبغتها ولها خصوصيتها الزمانية والمكانية والتاريخية، والحضارة كمنجز مادي قابلة للتنوع الثقافي، وهي موروث مشاع بين الأمم والشعوب، وكذلك المدنية من حيث هي أساليب إنسانية تختلف مرجعيتها وخلفيتها الفكرية، وفي بعض التعريفات الوجيزة: «ليست الحضارة إلا الثقافة مكتوبة بأحرف كبيرة على امتداد المكان والزمان»[٢].

وما دام مفهوم الثقافة قد اتسع وتمدد ليشمل الأبعاد الحضارية والمدنية؛ فإن الناظر في الثقافة الإسلامية لابد أن يكون قارئاً لها بشكل دقيق، فالثقافة الإسلامية عميقة متشعبة ممتدة في علوم كثيرة، وأمكنة عديدة، وأزمنة مختلفة، لا تنحصر في دائرة محدودة تشمل العلوم الدينية، وإنما تشمل كل المنتجات الفكرية والفنية والعلمية والمدنية، وهذا يتطلب النظر إليها بوصفها كُلاً متكاملاً متجانساً، كالجسم البيولوجي المتناغم، بمعنى أن المجتمع الثقافي على امتداده

(١) الثقافة: التفسير الأنثروبولوجي، آدم كوبر، ترجمة: تراجي فتحي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، مارس ٢٠٠٨م، ص٤١، ٤٢.

(٢) الحضارات في السياسة العالمية (وجهات نظر جمعية وتعددية)، تحرير: بيتر جي كاتزنشتاين، ترجمة: فاضل جتكر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، فبراير ٢٠١٢م، ص٢٥٢.

في حالة توازن وتَعاطٍ وتبادل، ووفق رؤية الاتجاه البنيوي؛ فإن الثقافة لها نظام هو أصل كل شيء، أي أن هناك بنية واحدة تجمع المشتركات والمختلفات، ونفهم من خلالها الظواهر، فالبنية هي النمطية التي لا تتغير[١]، وبالطبع بالمعنى الإيجابي للنمطية الدال على الهوية الجامعة الكلية، وليس بالمعنى السلبي الذي يعني التجمد.

فالدين منذ العصور المبكرة؛ كان مرتبطاً بتكوين الثقافة وصناعة الحضارة بشكل حاسم، فهو ظاهرة حضارية بامتياز، بمعنى أنه يتجلى في المنتَج الحضاري والمدني، وقد ضم الإسلام مسارات عرقية ولغوية وثقافية كثيرة تجاوزَت الشرق الأوسط[٢] وهي جغرافية العالم الإسلامي، وأثّرت في الإنسانية بشكل مباشر، وكونَت مجتمعات متعددة استقت من الإسلام عقيدته وشريعته واستنارت بحضارته، وقد تمثلَت نموذجية الحضارة الإسلامية اللافتة بقابليتها للتكرار الذاتي عبر الأقاليم المعمورة في المناطق الأفرو أورواسية، فالمجتمعات الإسلامية تكاد تتشابه ثقافياً (في العادات والتقاليد والأبنية والتخطيط والعلوم والفنون)، حيث كانت الإمبراطورية الإسلامية معتمدة على مدن إسلامية منبثقة من الإسلام ومعزِّزة له في الوقت نفسه، بوصفه ديناً ونظرة إلى العالم، وكانت اللغة العربية هي الوسيلة العالمية الشاملة للخطاب الديني، والرحَّالة ابن بطوطة خير مثال على ذلك، فقد تنقّل في أقاليم العالم الإسلامي مستخدماً اللغة العربية في حديثه مع علماء ومتعلمي هذه الأقاليم[٣].

---

(١) الأنا والآخر وهدم النمطية، ص٢٨٠.

(٢) الحضارات في السياسة العالمية، ص٢٥٤، ٢٥٥.

(٣) السابق، ص٢٦٢، ٢٦٣.

ويتناول التأسيس الإسلامي للتعامل مع الثقافات الأخرى مبادئ عديدة[١]، يمكن بلورتُها في نقاط تبيّن علاقة الثقافة الإسلامية مع الثقافات الأخرى:

أولاً: أن مبدأ وحدة الأصل الإنساني لا يكون مقبولاً مع الاختلاف، فالخلاف نفْيٌ لصفة الإنسانية عن «الآخر»، مخالفٌ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فالمسلمون لا يستعْلون على الشعوب الأخرى غير المسلمة كما فعلَت الحضارة الغربية المعاصرة؛ حين نادت بالتسامح وأفرزَته في أدبياتها السياسية، ولكنها لم تتسامح مع الآخر بحال من الأحوال، فهي تقوم على فكرة استعلائية مستمدة دينياً من فكرة «الشعب المختار»، التي ورِثَتها المسيحية الغربية بشقيها الأوروبي والأمريكي، أو الكاثوليكي والبروتستانتي «عن العهد القديم»[٢].

ثانياً: أن اختلاف الأمم إرادة إلهية، ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة، ولكن الاختلاف سنّة الله في خَلقه: في الناس والألسنة والعقول والنفوس والألوان وسائر المخلوقات، لذا كانت رسالة المسلمين عالمية في توجهاتها، ساعية إلى نشر الخير والهداية بين الناس، وعدم استغلال ثروات الشعوب، وقد انتشر الإسلام سريعاً، واعتنقَته أمم كثيرة في الأرض، عندما لم يجدوا تعالياً من الفاتحين المسلمين عليهم، واحتراماً لخصوصياتهم الثقافية، وكما نرى فهناك أديان وضْعية أرضية وثنية، وهناك أديان سماوية محرّفة، وهناك لا دينيون، وهذا كله يكوّن ثقافات يتعامل معها المسلمون بوصفها تنوّعاً وإن خالفوا عقائدهم،

---

(١) راجع تفصيلاً في: ثقافة قبول الآخر، ممدوح الشيخ، ص٧٧ وما بعدها، بإيجازٍ مع توضيح من قِبلنا.

(٢) المسلمون وأوروبا، التطور التاريخي لصورة الآخر، د. قاسم عبده قاسم، ص٤٤ وما بعدها.

فلم تكن هناك معاملة سيئة لهم ولا محاكم تفتيش.

ثالثًا: الاختلاف في الدين سُنة كونية وجزء من حال التعدد في الكون كله، فالدين عند الله الإسلام، وأكد القرآن وحدة الأصل الإنساني من حيث المادة التي خُلق منها وعملية الخلق والفطرة التي فطر الله عليها الناس: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩].

كما أن العلاقة بين «الناس» في القرآن محكومة بقيود أخلاقية وحدود لا يجوز انتهاكُها، لأنها أوامر إلهية كرَّمَت «الآخرَ» وجعلَت احترام إنسانيته واجبًا شرعيًا، بل جعلَت العدلَ معه علامة من علامات التقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

رابعًا: أن التعدد الإنساني جاء بعد «وحدة»، وهو مرتكز مهمّ بُني عليه مبدأ آخر هو المساواة في الإنسانية، فكما أننا جميعًا من نسل آدم عليه السلام، فإننا جميعًا ننحدر من أمة واحدة تفرقت، وإدراكًا لهذا الأساس بين البشر؛ فإن الثقافة العربية الإسلامية، قبِلت «الآخرَ» على أساس حقه في الوجود، والتعبير الفكري والإسهام الثقافي، ونجحَت في الإفادة من إنجازات هذا «الآخر»[(١)].

خامسًا: أن مفهوم وحدة الحضارة الإنسانية خرافة لخداع الشعوب خالية الثقافة، واستلاب الشعوب حضاريًا[(٢)]، فمسيرة الحضارات الإنسانية تنطق بالتنوع وليس الوحدة، لأن التنوّع إثراء يتفق مع طبيعة الثقافات المشكلة، لكل

---

(١) المسلمون وأوروبا، التطور التاريخي لصورة الآخر، ص٥٧.

(٢) على عتبات الحضارة: بحث في السنن وعوامل التخلق والانهيار، د. بتول أحمد جندية، ص٣٠.

حضارة خصائصها المكانية وسياقها الزمني، وقد تحدث القرآن عن الطبيعة النفسية للإنسان دون تفرقة بين السمات المشتركة بين أمة وأخرى، ولا بين مؤمن وكافر، ولم يكن إخبار المؤمنين بهذه السنن الكونية في الاختلاف والتعدد مقصوراً على مجرد اتساع «معرفتهم»؛ فالقرآن كتاب هداية، ومن ثم فإنه توجَّه إلى «الناس» مؤمنين وغير مؤمنين، كما أن مبادئ الإسلام في التعامل مع غير المسلمين (كل الناس) هي: الرحمة العامة، البر والإحسان، الرفق بأهل الذمة والعدل معهم، الوفاء بالعهود والمواثيق، ومنْع الفساد في الأرض[١].

سادسًا: تأكيد حرمة الحياة الإنسانية بين الناس جميعًا، على قاعدة المساواة في الإنسانية وإقرار مبدأ أن الخير يشمل الناس جميعًا، حتى أكثر فئات «الآخر» عداءً، فهي مبادئ إنسانية سامية اختص بها التشريع الإسلامي، وأكَّد على أنها فاصل نوعيٌّ بين الإنسان وسائر المخلوقات؛ لأنها تعبير عن إنسانيته، كما أنها وسيلته المُثلى للالتقاء مع الآخرين، فجزءٌ أساس من الخطاب الإسلامي يتوّجه إلى الناس جميعًا بل ويشمل الثقلين (الإنس والجن)، مؤمنهم وكافرهم، ويشمل مختلف مستوياتهم الثقافية والحضارية والعقلية، كما أن الأساس في فقه التعامل مع غير المسلمين هو التوازن والاعتدال، ويسعى إلى مدّ الجسور نحو الأمم المخالفة، لما في ذلك من جلب المصالح ودرء المفاسد، والأهم أن الإسلام -كتشريعٍ - استوعب كل ما يحتاج إليه الناس في حياتهم الدينية والدنيوية[٢].

---

(١) انظر تفصيلاً: التعامل مع غير المسلمين: أصول معاملتهم واستعمالهم، دراسة فقهية، د. عبد الله بن إبراهيم الطريقي، ص٣١- ٥٠.

(٢) التعامل مع غير المسلمين: أصول معاملتهم واستعمالهم..، ص٤٠٩، ٤١٠.

وتنطلق الثقافة العربية الإسلامية في تعاملها مع الثقافات الأخرى من منطلقين أساسين:

١) الثبوت فيما يتعلق بالمصادر القطعية وما جاءت به من عقائد وتشريعات وقيم ومناهج، وهذا يجعل الأصول الشرعية بمثابة ثوابت ومبادئ ومرجعيات لا تحيد عنها.

٢) التغير فيما يتعلق باجتهادات المسلمين وإبداعاتهم القابلة للصواب والخطأ، وبالتالي الاختلاف، فالجانب القطعيُّ في الثقافة العربية الإسلامية؛ يتسم بما يتسم به الإسلام من خصائص بصفته ديناً ومنهاجاً للحياة، وتتجلى هذه الخصائص في: العالمية، الشمولية، الوسطية، الواقعية، الموضوعية، والتنوع في الوحدة[1]، وهي سمات دالة على رحابة الثقافة الإسلامية ومرونتها مع المتغيرات في المجتمعات والشعوب والعادات والتقاليد، وإيمانها أن الاختلاف في حد ذاته إثراء لها، واستيعاب لما عند الآخر من علوم ومعارف وفنون.

كما أن لديها منهجاً في دراسة الآخر ينطلق من أربعة محاور متتالية ومتوازية في آنٍ واحد، وهي:

- الكلية: وتعني النظر للثقافة الإسلامية بوصفها كُلاً مترابطاً، في جوانبها العقائدية والتشريعية والفنية والعلمية والاجتماعية والسياسية.
- المقارَنة: يعني بين المذاهب والأفكار المختلفة، فيما بينها، ومع الثقافة الإسلامية نفسها.

---

(١) الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، الإيسيكو، ص ٥٣.

- التأصيل: لكل فكر وعلم وفنّ جديد أو قديم، بالنظر إلى علاقته بأصول الإسلام ومبادئه.
- النقد: بموضوعية وعلمية، ضمن التعاطي الإيجابي الذي يعني المناقشة والحوار البنّاء القائم على قاعدة المنفعة والاستزادة العلمية [١].

أما مقولة «أن الثقافة تراث إنساني لا دين ولا وطن ولا جنس له» فهي مقبولة بشكل جزئي في مجال العلوم البحتة والتطبيقية، أما سائر العلوم الإنسانية والفنون والمعارف التي تتعلق بتصورات الإنسان نحو الكون والحياة، وتحوي رؤى فلسفية وعقائدية؛ فتكون ضمن التراث الثقافي القابل للنقاش والأخذ والرد، بمعنى أنه يتم دراسة هذه الفنون والمعارف وفق قاعدة الاستفادة الحضارية والثقافية الإيجابية، فما يفيدني أتَتبّعه، وما يضرني ويتعارض مع أصول ثقافتي الإسلامية وثوابتها فلي حق الرد والرفض، وهذا مأزق العلمانيين العرب: (أنهم تعاملوا مع الحضارة الغربية على أنها كُلٌّ يؤخذ وخُطاهم تُتْبع، وعلينا أن نقرأ ثقافتنا في ضوء تصوراتهم الفلسفية والفكرية ومناهجهم العلمية في المجالات الإنسانية)، فكانت النتيجة أنهم وضعوا أنفسهم في مواجهة مع الموروث الثقافي للمسلمين في مجتمعاتهم، فكانت ردة الفعل متراوحة ما بين التأثر لفئة قليلة، والمواجهة لفئة كبيرة، وبات الحال الآن: شريحة قليلة من النخبة العلمانية، تعلّقَت بالسلطة ومناصبها وجامعاتها، وتمرّست في كثير من وسائل الإعلام، واعتبرَت أن ما عندها إنما هو نهاية التاريخ ثقافياً وعلمياً، وعلى المسلمين - إن أرادوا التقدم - أن يحذوا حذوهم، ونسوا أو تغافَلوا أن المسألة ليست على الإطلاق، وإنما فيها جدل كبير، فأهلاً بالعلوم التقنية التي

(١) مفهوم الثقافة الإسلامية وتحدياتها، صباح محمد جاسم، ص٦٨٨، ٦٨٩.

تسهم في النهضة والتقدم المادي والمدني، وأهلاً بالعلوم الإنسانية والمعارف والفنون على أن نستقبلها وندرُسَها دون استلاب نفسي أو حضاري، لأنها تعبير عن ثقافة الإنسان، فلا بد من دراستها دون افتتانٍ أو تعلُّق، فالبَون بين العلمانيين وذوي التوجهات الإسلامية ليس كبيراً ولكنه عميق، لأنه يتصل بالناحية النفسية، والتصورات الفلسفية والقناعات، وللأسف، بدلاً عن أن يتحول الخلاف إلى تنوّع وإثراء، بات سبيلاً إلى الفُرقة والمعاداة، والإقصاء والتآمر.

الثقافة الإسلامية وثقافات ما قبل الإسلام:

يمكن أن نقسم علاقة الثقافة الإسلامية بالثقافات الأخرى إلى حِقب أربع:

الحِقبة الأولى:

وتشمل القرن الأول إلى منتصف القرن الثاني الهجريَين، وفيها نرصد الصعود الكبير للعرب والإسلام على مستوى تأسيس دولة الخلافة، واتساع الفتوحات، واستقرار الدولة، ووضع أسس الحضارة الإسلامية الزاهرة، وتشمل عصر الخلافة الراشدة، وعصر الخلافة الأموية، فالحضارة تتجاوز الثقافة، وتتضمن «معنى التقدم والتفوق النوعي والكَمِّي، والإنجاز على مستوى الواقع، ودرجة ملحوظة من التأثير التاريخي، وفعاليّة في صُنع أحداثه وتوجيهها تصل إلى حد تشكيل منعطف، ومِفصل مُشِع فيه زمانياً ومكانياً»[1]، وهذا أمر بالغ الأهمية، لأن حضارة الأمم لا تقاس كمِّيًّا، وإنما بالأثر الذي تُحدثه، وما وراءها من ثقافة صلبة تستطيع أن تؤثر في الأفراد والشعوب، ويظل الأثر ممتداً لقرون، بل يتحول مسار هذه الشعوب لتكون ضمن بناء الحضارة العام.

---

(١) على عتبات الحضارة، ص٢٥.

ويمكن النظر إلى رسالة النبي محمد ﷺ بأنها أحدثَت أعمقَ وأوسع تحوّل ثقافي عرَفه الفكر العربي على الإطلاق، بل هي بمثابة ثورة ثقافية شاملة (وأساس لحضارة عظيمة)، تناولَت أوجه الحياة بالتعديل والتطوير والإضافة والتنقيح، فحدثَت تغيرات نوعية في العقيدة والعقول والمجتمع العربي، وهذا شأن جميع الديانات السابقة على الإسلام، ولكنها أديان قومية أُرسلت إلى أقوام بعينهم، والإسلام أُرسل للناس جميعاً، العرب وغير العرب، فاليهودية خاصة ببني إسرائيل والشعب اليهودي بعدُ، والمسيحية كانت حركة إصلاح داخل اليهودية ثم انطلقَت للعالمية، بعكس الإسلام، فإنه منذ اللحظة الأولى خاطب البشر جميعاً[1]، فحمَل العربُ بعد وفاة الرسول ﷺ عِبء نشر الدين وانتشاره إنسانياً، تنفيذاً لرسالة الإسلام وليس ابتغاءَ السيطرة والهيمنة على الشعوب والأمم.

وفي هذه الحِقبة تكونَت الثقافة الإسلامية من علوم القرآن والحديث الشريف واللغة والتاريخ وسائر علوم الشريعة، فلدى استقرار الفتوحات والدولة الإسلامية الواسعة في أقطار عديدة، شرَع العلماء المسلمون في بناء حضارتهم، متخذين من القرآن الكريم نصاً محورياً لهم، أي أن العلوم التي أُنشئت كانت تهدِفُ لحفظ النص القرآني وضبْطه وفهْمه، فلا عجب أن ينشأ حوالي اثنين وتسعين علماً خدمة للقرآن الكريم، وقد تطورَت هذه العلوم ونَمَت، وشكَّلت المرجعية الثقافية (الهوية) لدى العلماء المسلمين وعامتهم، وهي علوم خاصة ومميِّزة للثقافة الإسلامية، تمثل أعمدتَها الراسخة. وشتان ما

(١) معالم على طريق تحديث الفكر العربي، د. مَعن زيادة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، يوليو ١٩٨٧م، ص ٩٤-٩٥.

بين اجترار علوم من ثقافة سابقة، وما بين وعْي جديد في العقول والأذهان لدى المسلمين جعلَهم لا يكتفون بالاجترار، وإنما يسعون إلى تأسيس ثقافة إسلامية، برؤية حضارية شاملة.

لقد كانت ثقافة العصر الجاهلي هي الثقافة الأولى التي كان على المسلمين أن يحاوروها وينهلوا منها، فكان لابد من جمْع اللغة العربية من مصادرها في الشعر الجاهلي، لتكوّن مع القرآن الكريم الشواهد الأساس في الاحتجاج اللغوي، ومن ثَم تكونَت العلوم اللغوية التي تكاملَت تدريجياً واستقلَّت بعد ذلك في علوم قوية، والثقافة الإسلامية دائرية المعرفة، وعلى الباحث والعالم دراسة العلوم الشرعية واللغوية والتاريخ أولاً، ومن ثَم ينبُغ في علمٍ أو أكثر ويضيف عليه، فكل العلوم تنهل من بعضها، وتتكامل في رؤاها، وتَصُب في النهاية في دائرية ومنهجية استوعبَتْها أجيال العلماء المسلمين.

الشاهد أن المسلمين رغم حداثة عهدهم في القرنين الأول والثاني الهجريين، إلا أنهم لم يخضعوا لمؤثرات الجاهلية، وإنما أَخضعوا ثقافة الجاهلية لرؤيتهم الإسلامية، حتى لو رأينا مظاهر سلبية هنا أو هناك من «دعوى الجاهلية»؛ كالتعصب للقبائل والأنساب والشعوبية، إلا أنها لا تؤثر في المجمل على البناء الحضاري الصاعد، فإن الثقافة الإسلامية تأسسَت على منظومة العقيدة والأخلاق والشريعة التي أتى بها الإسلام، وعندما استقرت في النفوس؛ فإن المسلمين حوّلوا الثقافة العربية في العصر الجاهلي التي كانت أقرب ما تكون إلى ثقافة شفهية؛ إلى ثقافة مدوَّنة ثم علوم مكتملة، فمثلاً: كان الشعر الجاهلي فياضاً على الألسنة بروايات شفهية، لأن المدوَّن منها كان متناثرات في الجلود والعظام والرُّقع والأحجار وسَعْف النخيل، فلم يكن لديهم كتاب من قبل، وكان القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الجامع المدوَّن بعد وفاة

الرسول ﷺ[١]، فقام اللغويون بجمْع النصوص الشعرية من ينابيعها اللغوية الصافية لدى القبائل، وقاموا بتدوينها وترتيبها وفهرَستها وترتيب الشعراء في طبقات.

فالثقافة الإسلامية تأسست في المرحلة الأولى (القرنين الأول والثاني الهجريين) على ثقافات ممتزجة لنهر الثقافة الإسلامية العام؛ وتَمثَّل ذلك في ثلاثة جداول:

الأول: يشمل علوم الإسلام الدينية التي استقرت تدريجيًا: علوم الحديث والتفسير والتاريخ والفقه وغيرها، وهو الجدول الأساس الذي نبعَت منه مبادئ ومنطلقات الحُكم على سائر الثقافات الأخرى، وصبْغ الثقافة الإسلامية بصبغته.

الثاني: علوم اللغة، وقد استندَت على ما جمعه الرواة واللغويون من التراث الجاهلي من شعر وأنساب وأيام الجاهلية وتقاليدها، وتم تنسيقها وضبطها وتحقيقها.

الثالث: روافد من ثقافات الأمم الأخرى، خاصة الأقطار المفتوحة، وهي أقطار لها حضارات سابقة كالثقافة الفارسية في العراق وبلاد فارس، والثقافة البيزنطية في مصر والشام، وكانت مجالات الاستفادة في شَق القنوات المائية واستغلال الأرض، وتخطيط المدن، وعمارة البيوت والقصور، وبناء الأساطيل وفنون الحرب، وسُبل إدارة الدواوين التي عُرّبت بعدُ في عهد عبدالملك بن مروان[٢].

---

(١) العصر الجاهلي (تاريخ الأدب العربي)، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية والعشرون، د ت، ص١٤٠، ١٤١.

(٢) العصر الإسلامي (سلسلة تاريخ الأدب العربي)، د. شوقي ضيف، ص١٩٩، ٢٠١.

والملاحَظ في هذه الحقبة من علاقة الثقافة الإسلامية بالثقافات الأخرى ما يلي:

- أن المسلمين أسسوا علومهم المستقلة الخالصة بحضارتهم، كالعلوم الشرعية واللغوية، وهي كانت المرجعية الحضارية الأساس (١)، التي تلَقَّى المسلمون من خلالها الثقافات الأخرى.

- كان المسلمون منفتحين بشكل كبير على الثقافات الأخرى، وليس كما يظن الجهلاء أنهم كانوا منغلقين وأن الإسلام دفَعهم للانغلاق، بل على العكس فإن الإسلام شكّل لهم دافعاً حضارياً كبيراً للتوجه نحو بناء قاعدة علمية قوية، تستفيد من الحضارات السابقة، وتأخذ ما تحتاجه منها دون مسْخ للثقافة الإسلامية بل تطوير لها.

ولعل المثال الأوضح على هذه الاستفادة: ما أخذه العرب الفاتحون من الرومان والفُرس في طُرق الحروب، فقد فوجئ الروم بمستوى الجيش العربي عندما حاصر دمشق مستخدماً آلات متطورة نوعاً ما، وخططاً عسكرية جيدة بعيدة عن طرق العرب في الحروب المعتمدة على الكَرِّ والفَرِّ[٢]، وقد كان هذا في زمن الحرب، فالعقلية العربية عرفَت ماذا تأخذ وتتعلم من الأعداء، ناهيك عن الحلفاء والشعوب الأخرى التي قام بالسيطرة عليها.

- أن الثورة الفكرية الشاملة التي أحدثها الإسلام بتحولاتها الثقافية العميقة في العقلية العربية، استندَت إلى خطاب عقلاني قدّمه القرآن الكريم، وجدلية هذا الخطاب المركزية تستند إلى الصراع بين المعقول

---

(١) المصدر السابق، ص٢٠٣.

(٢) معالم على طريق تحديث الفكر العربي، ص١٠٧.

واللامعقول، فالمعقول هو التوحيد، أما اللامعقول فهو الكفر والشرك بالله تعالى، وإقامة الحجج العقلانية على تهافت الشرك، والتنبيه على أن التأمل في صنع الكون، والقوانين الطبيعية؛ لإقامة الدليل على وجود الصانع[١]، والحثِّ على السعي لعمارة الأرض ونشْر الخير والاستفادة من سائر العلوم.

- كان للعلماء المسلمين الفضل الكبير في حِفظ ثقافة العصر الجاهلي بكافة أشكالها، ولأنهم امتلكوا تحصينًا عقائديًا وفكريًا من الإسلام؛ فإنهم سجّلوا تراث الجاهلية الشفهي بشكل دقيق وعميق، واستفادوا منه في علوم اللغة والتاريخ والأنساب والقبائل.
- أن مجالات الاستفادة من الثقافات الأخرى (الأجنبية)، كانت فيما هو نافع من علوم وفنون وصناعات وريّ وزراعات ودواوين، وفيما احتاجه العرب الفاتحون للأقطار الجديدة، وتعاونوا مع أهل هذه البلدان، غير مغترّين بقوَّتهم ولا كونهم الحكّام الجدد.

ولكن: لماذا لم تطغَ الثقافات الأخرى على ثقافة المسلمين الناشئة؟

وتأتي الإجابة مما يذكره الشيخ أبو الأعلى المودودي، حيث يشير إلى أن الحكم والسيادة والغلبة والاستيلاء نوعان: أولهما: الغلبة المعنوية والخُلقية، والآخر: الغلبة المادية والسياسية[٢]، فالنوع الأول يُعنى بالقوى الفكرية والروحية والعلمية، والثاني يُعنى بالقوى المادية العسكرية وشؤون الحكم. وبالنظر إلى تلك الفترة من حضارة الإسلام، فإن المسلمين امتلكوا النوعين

(١) السابق، ص١٠٠، ص١٠٢.
(٢) نحن والحضارة الغربية، أبو الأعلى المودودي، ص٧.

بنِسب غير مكتملة، فقد جعلَهم الإسلام في وحدة وقوة، وأعطاهم غلبةً معنوية وأخلاقية جعلَتهم مُكْتفين روحيًا وسلوكيًا عما لدى الأمم الأخرى، بل فتحوا البلدان وأسقطوا الامبراطوريات الكبرى؛ لأنهم حملوا رسالة الإسلام السامية التي جعلَت الشعوب الأخرى تتقبّل حُكمهم وترغب في دينهم، وتسعى إلى تعلّم العربية لغتهم، أما النوع الثاني، فالمسلمون بالفعل كوّنوا - منذ البداية - القوة العسكرية، وامتلكوا القدرة على النصر السريع، بحكم حماستهم وحُسن تنظيمهم وبراعتهم واستبسالهم القتالي، مما جعلَهم يسيطرون بسرعة ويُسْرٍ على الشعوب، أي أنهم امتلكوا القوة المعنوية بإسلامهم، والمادية بمستوى عسكريتهم، والسياسية بحكمهم، وراحَت القدرة العلمية تتكون تباعًا من ثقافتهم والثقافات الأخرى.

وفيما يتصل بفن قيادة الشعوب، فقد أثبتَت القيادة العربية قدرتها على اكتساب صناعة الإدارة والسياسة على عجل مثلما فعلَت في فنون الحرب، حيث تلخصت الخطوط العريضة في فن الإدارة والسياسة العربيتين؛ في احترام عقائد الشعوب وأعرافها وعاداتها وتقاليدها، بتخييرهم بين الإسلام أو دفْع الضرائب مقابل حمايتهم، وهي أقل ما كانوا يدفعونه لملوكهم السابقين، ومعاملة العرب للجميع بالرفق والإنصاف، واعتبارهم إخوة إن لم يكن في الدين ففي الإنسانية[1]، والمثال الأبرز في السياسة الحكيمة للعرب في قيادة الشعوب مستعينين بفقه عميق للإسلام: موقف عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أرض السَّواد، حيث أقر أهلَ السواد في أرضهم، وضرَب على رؤوسهم الجزية، وعلى أرضهم الطسق (الخَراج) لتكون أُعطيات للمسلمين، فإنها ستُقسَم فيمن

(١) معالم على طريق تحديث الفكر العربي، ص١٠٨.

حضر من المسلمين (أي عاصَرهم)، ولن يكون شيء لمن يأتي بعدهم، وقال للمسلمين: «أخاف أن تفاسدوا بينكم في المياه، وأخاف أن تَقتتلوا، وقال أيضًا: لولا آخر المسلمين ما فُتِحَتْ قريةٌ إلا قسّمتها كما قسّم رسولُ الله خيبرَ»(١).

الحِقبة الثانية:

وتشمل القرون التالية للقرن الأول، حيث نرصد الخلافة العباسية في عهدين: العصر العباسي الأول حيث بلغت الدولة العباسية شأنًا كبيراً في قوتها العسكرية والسياسية والاقتصادية، والعصر العباسي الثاني وبداية ضَعف سلطان الدولة العباسية وزيادة قوة الإمارات والدول.

وفي العصر العباسي، كانت الخلافة الإسلامية قد بلغت أَوْج اتساعها، من حدود الصين وأواسط الهند شرقًا، إلى المحيط الأطلسي والأندلس غربًا، ومن المحيط الهندي والسودان جنوبًا، إلى بلاد الخزر والترك والروم والصقالبة شمالاً، فشملت شعوباً كثيرة، وثقافات عديدة، واللافت وقتها: ارتحال كثير من القبائل العربية واستقرارها في البلدان المفتوحة، وكوّنَ الإسلام رابطة أشبه برابطة الدم؛ عبر مزْجٍ روحي من خلال العقيدة الإسلامية التي جمعَت بين شعوب العالم الإسلامي، فإن لم يُسلم الشخص فهو يعيش في كَنَف الأمة المسلمة، التي تَقبَله بثقافته وديانته دون تمييز كما نصَّ الإسلام، فمن لم يُسلم من الموالي: اندمج بسرعة في الثقافة العربية التي انتشرت في الأقطار القريبة من الجزيرة العربية كالعراق والشام ومصر، وأخذ بعضَ الوقت في

---

(١) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، للإمام أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، دراسة وتحقيق: د. السيد الجميلي، ص٧٠.

الأقطار البعيدة [١]، في الوقت نفسه راح العرب يُلِمّون بثقافات الشعوب المفتوحة، ويسجل التاريخ اندماج أهل الأقطار في الدولة الإسلامية من خلال عملهم في الدواوين، وكان منهم الأطباء والكُتّاب ونقَلة علوم الأوائل [٢].

وتستوقفنا في هذه الحقبة ثلاث ثقافات بارزة، كانت لها آثار كبيرة ووشائج قوية على الثقافة العربية، ألا وهي: الثقافة الفارسية، الثقافة الهندية، والثقافة اليونانية، وهي ثقافات رأى الكثيرون أنها مؤثِّرة (والبعض قال إنها مكونة) للثقافة الإسلامية، والحقيقة أن الثقافة الإسلامية تكونت بشكل أساسٍ ثابت ومستقل عن هذه الثقافات، وبدأت تنهل منها بشكل تلقائي منذ استقرار العرب في الأمصار واحتكاكهم المباشر بالأمم الأخرى، فالعرب تعلّموا منذ العصر الأموي؛ فن الطباعة بالقوالب من الصينيين الذين سقطوا في أَسْرهم خلال فتح الصين [٣]، مما يدل على أن العربي كان منفتحاً على تعلّم الفنون والعلوم أياً كان مصدرها ومعلّمها منذ عهد مبكر، وامتاز العلماء العرب بعقلية علمية تروم الحكمةَ وتسعى لتعلّم الجديد نظرياً وتطبيقياً، وقد استقر لدى العرب خلال المرحلة الأولى من تأسيس ثقافتهم وحضارتهم؛ أهمية الروح التجريبية والاستنتاجية، خصوصاً أنها ذات أصل بالعلم الشرعي، فلا رأيَ دون دليل، ولا قبول بدليل إلا بالتأكد من صحة سنَده ومتنه، فبحثَ العربيُّ عن كل معرفة علمية تُغنيه وتفيده، وجعَل نظرتَه ديناميكيةً يعمل من خلالها على تطوير حياته والنهوض بقدراته، فالإنسان العلمي هو الذي يعتز بما صنَعه العقل الإنساني أياً

(١) العصر العباسي الأول (من سلسلة تاريخ الأدب العربي)، د. شوقي ضيف، ص٩٠-٩١
(٢) المصدر السابق، ص٩٨.
(٣) مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام، د. أحمد سليم سعيدان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، أكتوبر ١٩٨٨م، ص٣٨.

كانت ديانته أو جنسيته أو زمنه[١]، وهذا نابع من بيئةٍ أشاعت منذ البداية أخلاقيات علمية عامة، أساسها: السلوك الماثل في تصرفات الجماعة، ومدى انطباقه مع المُثل العليا التي تنادي بها الجماعة[٢]، أي أن الثقافة الإسلامية وفّرت بيئة علمية أخلاقية عالية فيما تنادي به وفيما يطبقه المسلمون، وأي سلوك في المجتمع كان يقاس بمدى اتفاقه أو اختلافه عن أخلاق الدين وهَديه وإرشاده، كما أن الإسلام لم يكن به كهنوتٌ يحتكر العلمَ على نحو ما رأينا في الحضارات السابقة: الهندية واليونانية والعصور الوسطى في أوروبا، إذ احتكرت فئةٌ قليلةٌ من علماء الدين؛ العلمَ الديني والدنيوي[٣]، في حين أن العلم الشرعي والدنيوي كان مشاعاً لعامة المسلمين وخاصتهم في البيئة العلمية الإسلامية، وكانت حلقات العلم في المساجد والقصور والساحات، ناهيك عن المدارس التي أنشئت بعد ذلك.

وقد كانت سبل التثقيف قائمة على مبادرات فردية من العرب، ثم برعاية وتوجيه من الخلفاء منذ العصر الأموي، من خلال المستعربين الذين نقلوا ثقافات أممهم المغلوبة إلى الثقافة العربية الجديدة في عهد بني أمية، فنقلوا كتباً في الصنعة والعلوم والنجوم من اليونانية، وأمر عمر بن عبد العزيز ﵁ بترجمة كتاب في الطب اليوناني لأهرن، كما ترجموا كتباً من الفارسية؛ منها تاريخ الساسانيين ونُظمهم السياسية؛ الذي طلبه هشام بن عبد الملك، وتحوّلت المدن الكبرى في الأقاليم إلى مراكز ترجمة؛ كالإسكندرية والرها وأنطاكية وحران ونصيبين، ولم يكن هناك غضاضة في التعاون مع علماء الدين النصارى

(١) انظر: المرجع السابق، ص٤٨، ٤٩.
(٢) المرجع السابق، ص٥٣.
(٣) المرجع السابق، ص٨٣.

السريان، والعلماء اليهود وغيرهم [١]، وقد شارك العامةُ الخاصةَ في النهل من العلوم والمعارف، فالعلم مطروح في المساجد والمكتبات ودكاكين الورّاقين، ومَن يراجع تراجم العلماء يجد كثرتهم الغالبة من العامة لا من الأُسر النَّخْبَوية أو الثرية أو المتوارثة للعلم، يدل على ذلك: ألقابهم: الحَدّاد، الخَرّاز، القواريري، التَّمّار، القَوّاس، النَّبّال، القَلّال، والعَطّار، والمطرِّز، كما كانت النساء يختلِفْن إلى حلقات العلم، ويَبرُزن فيها بالنقاش والتأليف والتدريس [٢].

لقد قدِم عالم هنديّ يُدعى «كنكه» إلى بلاط الخليفة المنصور، حاملاً معه عِلمَ الهند في الرياضيات والفَلَك، فاحتفى العلماء المسلمون به بشكل مباشر، وترجموا كتابه، وقام العالم المسلم محمد بن إبراهيم الفِزاري بعمل كتاب عربي عن حركة الكواكب سمَّاه: «السند هند الكبير»، وسار العرب بعدها على نظام الأرقام الهندية في حساباتهم، واستبدلوه بالنظام اليوناني الذي كان سائداً منذ فتح الأقاليم واستمر بعدَ تعريب الدواوين في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان [٣]؛وكان هذا دليلاً على العقلية العلمية الرصينة التي زانَت الثقافة الإسلامية، والتي جعلَت قبول الآخر ثقافيـًا؛ أمراً مُيسَّراً وسهلاً، على صعيد الخليفة والعالم والعامة.

وكان للفُرس نصيب كبير في نقل الثقافة الهندية واليونانية، فهناك مصنفات يونانية نُقلت إلى العربية من الفارسية، وكُتب هندية نُقلت إلى العربية عبر

---

(١) العصر العباسي الأول، ص١٠٣.

(٢) العصر العباسي الثاني (من سلسلة تاريخ الأدب العربي)، د. شوقي ضيف، ص١٢٧، ١٢٨.

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، ص٧٣، ص٧٤.

الفارسية، أبرزها كتاب «كليلة ودمنة»، فالكتاب- طِبقًا للنسخة العربية- مترجم عن الفارسية، المترجمة من قبل عن اللغة السنسكريتية القديمة في بلاد الهندو وهناك آراء قديمة تقول إن ابن المقفع قام بوضع الكتاب وتأليفِه من أجل الانتصار للثقافتين الهندية والفارسية معًا، ولكنها حجة ضعيفة، لأن جهود المستشرقين أثبتَت أن قصص الكتاب متواجدة بشكل متفرق في الأدب الهندي القديم، وبخاصة في كتب: «بنج تنترا»، ومعناها (خمسة أبواب)، هيتوبادشا أي (نصيحة الصديق)، والمهابهاراتا، وفي العصر الحديث تمت ترجمة الكتاب ثانية من العربية إلى اللغات العالمية بما فيها الفارسية والهندية[١]، وهذا دليل على دور الثقافة العربية في حفظ تراث الشعوب الأخرى حتى بعد ضياعه، وهي أيضًا شاهدة على تقبُّل العقل العربي المسلم للثقافة الهندية من خلال الترجمة الراقية التي قام بها عبد الله بن المقفع لكليلة ودمنة، فغاية العقل المسلم: الحكمة، خاصةً أن ابن المقفع حرِص على تقديم الكتاب بمقدمات أربع، عزَّز فيها مفهوم الحكمة إسلاميًا، وأبان أهمية الكتاب على مستوى النخبة والحكام والعامة، كما أبانَت أن ابن المقفع راعىَ في ترجمته ثقافة القارئ في عصره، وهي ثقافة عربية إسلامية، فلم يقدّم له ما يضاد معتقداته، بل طوَّع المفردات والتعبيرات بما يلائم ثقافة القارئ وينفي عن المترجِم ابن المقفع تهمة الزندقة أو الترويج لها[٢]، ونفس الأمر مع الكتاب الشهير «ألف ليلة وليلة»، فهو كتاب تطوّر كثيراً في قصصه عبر العصور، وكثير من الباحثين يعودون بأصله إلى

(١) انظر تفصيلاً لذلك: الأدب القصصي عند العرب، موسى سليمان، ص٢٣.

(٢) انظر تفصيلاً: تحليل خطاب المقدمات في كتاب كليلة ودمنة، د. مصطفى عطية جمعة، مجلة العرب، الصادرة عن مركز حمد الجاسر الثقافي، الرياض، يوليو/ أغسطس ٢٠١٤م، ص٨٧ وما بعدها.

الأدب الهندي القديم، وقيل: إنه يعود إلى التراث الفارسي وكان عنوانه «هزار أفسانه»، وأنه تُرجِم عن الهندية القديمة إلى اللغة الفارسية، وتنامَت حكاياته وزادت عبر القرون في أقطار العالم العربي، من خلال ما بناه الخيال العربي سواء في الطبعات المهذبة منها أو المخالفة[١]، إلا أنها حملَت ملامح التخييل العربي في مختلف الأقطار، بحيث إننا لا نجد ملمحاً هندياً أو فارسياً إلا في أسماء الشخصيات أو الملوك، لتكون دليلاً آخر على تفاعل ثقافي عربي واسعٍ مع هذا الشكل الأدبي الوافد من ثقافتين أخريين، وعبر الأدب العربي؛ انتشرَت ألفُ ليلة وليلة بترجمات كثيرة إلى أغلب لغات العالم.

أما قضية الفلسفة اليونانية ومبالغة المستشرقين والعلمانيين العرب في الاعتناء بها، ومدى تأثر العلماء المسلمين بها قديماً، فهو أمر يضاف للعقل المسلم الذي تأسس شرعياً في العلوم الإسلامية، ثم صار عقلاً علمياً مستفيداً من سائر العلوم والفنون المنقولة والموروثة، وكان التطور الثالث هو العقل الفلسفي، متأثراً باليونانيين، فتعمَّق الفلاسفة العرب فيها وبخاصة المعتزلة، وأسهموا في شرْح الفلسفة اليونانية وتهذيبها والإضافة عليها والاستفادة منها في الكلام وعلوم اللغة والبلاغة وغيرها[٢]، ومن هنا تظهر الطبيعة الانتقائية للكتابات العلمانية المتأثرة بالفلسفة الغربية في النظر إلى التراث العربي الإسلامي، وإعلاء كل حركة أو مؤلَّف اقترب من الفلسفة اليونانية، دون قراءة الأمر ضمن تطور العقل المسلِم تاريخياً، وأنه يتفاعل مع الثقافات الأخرى ويزيد عليها أو يرفضها، ومعلوم أن العرب لم يترجموا كتاب أرسطو عن الشعر

(١) للمزيد، انظر عن ألف ليلة وليلة: د. أحمد كمال زكي، ضمن ملف عن ألف ليلة وليلة، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، شتاء ١٩٩٤م، ص١٣-١٧.

(٢) العصر العباسي الأول، ص١١٥-١١٧.

وفيه قواعد الملحمة المسرحية، وهذا يعود إلى عدم وجود هذا الشكل الفني في الحياة الأدبية العربية وإن وُجدت أشكال أخرى تمثيلية، أي أن القاعدة بالنسبة للعقول العربية القديمة هي الاستفادة الفعلية التي يمكن البناء عليها داخل الثقافة العربية والإسلامية، مثلما رأينا في استفادة المدارس الكلامية من المنطق اليوناني في محاجَجَتهم الملاحدةَ والمِلل الأخرى، ولا ننسى أن العقول المسلِمة قديماً؛ تشبَّعت بعلوم الشريعة، وكانت ثقافتُها موسوعيةً قبل الخوض في غِمار الفلسفة اليونانية، والأمثلة كثيرة أبرزها: ابن رشد العالم والفقيه الشهير.

ولو نظرنا إلى الفيلسوف المسلِم «الفارابي»، فسنجد فلسفتَه مثالاً واضحاً على الاستفادة من سائر العلوم والثقافات العربية والإسلامية واليونانية وغيرها، ففي كتابه «التنبيه على سبيل السعادة» يركز على علمَي الأخلاق والسياسة مستعيناً بالفلسفة اليونانية، ويضم إليهما الفقهَ والكلام، متأثراً بالتطور العلمي للحضارة الإسلامية، ومضيفاً ما ورد إليه من التراث اليوناني، فتخطى علمُه مرحلة النقل إلى مرحلة البناء ذي الطابع الخاص، قائماً على أسس طبيعية ومعرفية وأخلاقية ودينية ثابتة، وليس مجرد تعداد للعلوم القائمة في زمانه وإحصائها[1]، عكس ما نراه من كثير من باحثي الفلسفة المعاصرين، الذين يكتفون بعرْض الفلسفات الغربية على أنها المطلق في الجِدة والإبداع العقلي غير مناقشين لما فيها: هل يتفق مع عقلنا وثقافتنا أم لا؟

---

(١) الإنسان في الفلسفة الإسلامية (نموذج الفارابي)، ص٣٩، ٤٣، وقد جعل الفارابي فلسفتَه قائمة على علوم موزعة إلى خمسة أجزاء: علم اللسان (علوم اللغة)، علم المنطق، علوم التعاليم (الهندسة والمناظر والنجوم)، العلم الطبيعي، العلم المدَني (الأفعال والأخلاق، وعلم الفقه والكلام).

وفي العصر العباسي الثاني، ضَعُفَ سلطانُ الخلافة في بغداد، وقَوِيَ سلطان الولاة في مصر والمغرب العربي والعراق والشام، وظهرَت دول عديدة؛ كالطولونية والإخشيدية في مصر، ودولة بني بويه ودولة السلاجقة في العراق والشام وغيرها، وقد كان لدولة السلاجقة - على يد ألب أرسلان وأبنائه - الفضل الأكبر في الحفاظ على الإسلام من أخطار عديدة تهدده، كالمذهب الإسماعيلي، والدولة الفاطمية، والصليبيين، وكانت لهم مواجهات ومعارك أعلَوا فيها شأنَ الإسلام[1]، والسلاجقة قبائل تركية كانت تعيش على الرعي والحياة البدوية حتى انتقلَت إلى السلطة، وكانت خَصماً شرساً أمام هجمات الإسماعيليين والصليبيين، واستطاعوا صَد هذه الهجمات.

واللافت في هذه الفترة ثقافياً؛ أن الإسلام كدينٍ وثقافةٍ يمكن أن يكون قوةً دافعةً للشعوب أياً كانت حضارية أو بدوية، فالمهم الإيمان به والعمل لنصرته، وهذا ما حدَث مع العنصر التركي في الدولة السلجوقية، الذين واصلوا الجهاد، وأسسوا المدارس، وكوّنوا جيلاً جديداً أمام تحديات العالم الإسلامي بعدما تراجع العنصر العربي، فالإسلام ديناً وثقافةً وخلقاً؛ لديه القدرة على أن يحوّل النفوس إلى طاقات جبارة لنصرة الإنسانية، بِغضِّ النظر عن الجنس أو الحضارة.

ونفس الأمر مع هجمة التتار على العالم الإسلامي، فرغم انتصارهم وإسقاطهم للخلافة العباسية، إلا أنهم لم يستطيعوا مواجهة قوة الثقافة الإسلامية وعِظم تأثيرها، رغم محاولات ممثلي البابا في أوروبا تشكيلَ تحالفٍ

(١) لمزيد من التفصيل؛ انظر: دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، د. علي محمد الصلابي، ص٨٠ وما بعدها.

مسيحي مغولي في أقاليم العالم الإسلامي، بحيث يسيطر الصليبيون والمغول على ما استولوا عليه من بلدان العالم الإسلامي، وقد زار ممثلو البابا «أنوسنت الرابع» الفرنسيسكاني؛ عاصمةَ المغول عامي ١٢٤٥-١٢٤٧م، كما زارها ممثلو «لويس التاسع» ملك فرنسا عامي ١٢٥٣-١٢٥٥م، بهدف إقناع ملك المغول باعتناق المسيحية، ولم تفلح رحلة ماركو بولو الشهيرة خلال الأعوام (١٢٧٥-١٢٩٢م) في إقناع ملك المغول «قوبلاي خان»، فباءت كل تلك المحاولات بالفشل، واعتنق المغولُ الإسلامَ، وذاب مَن بقي منهم في ديار الإسلام في المجتمع الإسلامي[١]، وقد كان مجيء المغول للعالم الإسلامي كما يقول أرنولد توينبي: عنصر تقوية في المنظور البعيد؛ لأنه ساعد على تمدد الإسلام دينـًا وثقافةً إلى وسط آسيا وجنوب روسيا، فجميع أحفاد جنكيز خان المتفرعين عن بيته اعتنقوا الإسلام، ونشروه في السهوب الأوراسية وما وراء النهر[٢]، مما يدل على رسوخ الثقافة الإسلامية وقدرتها على استيعاب الثقافات الأضعف والأقل استيعابًا دينيًا وفكريًا وروحيًا وعلميًا.

كما أن الصليبيين انكسر مشروعهم الساعي إلى السيطرة العسكرية والاقتصادية والدينية على أقاليم في العالم الإسلامي، وبخاصة بلاد الشام ومصر، فرفض المسلمون ثقافتَهم، وعادوا بعد حوالي قرنين من الزمان إلى بلادهم يجُرّون أذيال الخيبة، ويفكرون جيداً في النهضة بعدما شاهدوا ما عليه المسلمون من حضارة ورُقيّ فكري وعلمي.

---

(١) تاريخ البشرية، أرنولد توينبي، ترجمة: د. نقولا زيادة، الجزء الثاني ص١٧٩.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ١٥٦.

ويمكن أن نخلص من هذه الفترة، برؤية مجمَلة عن علاقة الثقافة الإسلامية بالثقافات الأخرى، فالثقافة الإسلامية لها من القوة والرسوخ ما يجعلها تستوعب شعوب المغول وقبائلَها بكل عنفوانها، وتحوّلها من شعوب همجية أقرب إلى الطابع الوحشي، إلى اعتناق الإسلام والاندماج في المجتمع المسلم. فالقضية ليست قوة، وإنما عقل ودين وثقافة وحضارة، تستوعب الآخرَ مهما اشتدت قوتُه وقسوته، وقد تمددت الثقافة الإسلامية وتقدمَت إلى شعوب المغول الذين سيطروا على روسيا ومختلف بلدانها، ووصلَت إليهم منتجات متنوعة من مصر والشام، من خلال المنسوجات الناعمة الجميلة، والفواكه المختارة، والعطور النادرة، والحيوانات الغريبة، والصناع الحرفيين، وعلماء الدين، فتوطدت هيمنة الثقافة الإسلامية على الشعوب المغولية على ضفاف نهر الفولغا، وتحولت هذه الأقاليم إلى الإسلام بطريقة سلمية[1].

وأثبتَت الثقافة الإسلامية أن لديها القدرة التي تميزت بها منذ البدء، ألا وهي تحويل النفوس الفردية والجماعية- وإن تعاظمَت بَداوتُها- إلى قوة دافعة تنصُر الإسلام وتنافح عنه، مثلما رأينا مع العنصر التركي في الدولة السلجوقية الذي حل محل العنصر العربي والفارسي اللذين تراجعا قيادياً.

كما وقفَت الثقافة الإسلامية صَلبة أمام الهجمة الصليبية بالرغم من شعاراتها الدينية وتهديداتها العسكرية والمذابح التي ارتكبَتها، لينقلب الأمر نُصرةً وتأثيراً كبيراً في العقل الأوروبي في العصر الوسيط، وطرح سؤال النهضة عليه، وشهد بذلك كثير من المؤرخين الأوروبيين، الذين أكدوا أن الحروب الصليبية كانت ميداناً لتلاقي أقوامٍ من الهَمَج وحضارةٍ من أعظم الحضارات

(١) العالم الإسلامي في العصر المغولي، برتولد شيولر، ترجمة: خالد أسعد عيسى، ص٩٣-٩٨.

التي عرفَها التاريخ، حيث استغل الأوروبيون فترات السِّلْم في التواصل مع المسلمين وعلومهم، وأخذوا عنهم صناعاتٍ كثيرةً مثل: الزجاج الملون، والورق، والإبرة المغناطيسية، والأسلحة النارية وغيرها، كما أخذوا عنهم طريقة التفكير العلمي المبني على البراهين والأدلة والاكتشاف [١].

الحِقبة الثالثة:

ونعني بها حقبة الدولة العثمانية، والكلام يطول فيها، ولكنَّ البعد الثقافي الذي نلاحظه فيها: أن الخلافة العثمانية حققت وِحدة واستقراراً لقرونٍ للولايات العربية الإسلامية التي انضوَت تحتها، وحافظَت على اللغة العربية والتشريع الإسلامي ومختلف العلوم التي أنتجَتها الحضارة الإسلامية في مراحلها السابقة، ومنعَت تغلغلَ الاستعمار الأوروبي في أعماق العالم الإسلامي[٢]، ولم يستطيعوا التوغل إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حين ضعفت الدولة العثمانية، وقد بدأ هذا مع السلاطين الضعاف الذين تتابعوا على الخلافة في القرن الثامن عشر، وافتقاد الدولة للإصلاحات في المجالات العلمية والعسكرية والقانونية، بجانب سيادة مظاهر الضعف المعتادة في الحضارات؛ مثل ترف السلاطين في قصورهم، وخضوعهم للنساء، وطغيان العسكر على الدولة، وفساد الإدارة والولاة، والانصراف عن العلم والتطور رغم وجوده في أوروبا القريبة، وإعلاء شأن اللغة التركية على حساب اللغة العربية في دواوين الدولة، وإن كان يسجَّل لها وجود نظام المِلل الذي اعتنى

---

(١) راجع: دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية، أ. هاني المبارك، د. شوقي أبو خليل، ص٥٦-٥٩، وأيضاً: شمس العرب تسطع على الغرب، ص٤٤، ٤٥.

(٢) الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، إسماعيل أحمد ياغي، ص٢٣٨.

بالتعددية الدينية والثقافية، والتنظيم العثماني للمؤسسة الدينية الإسلامية ضمن هيكلة الدولة، ولكنَّ المأخذ الثقافي هو استمرار نمطٍ ثقافي واحدٍ قائمٍ على عدم التجديد[١]، رغم اتجاه شعوب المسلمين إلى الضعف والاستكانة الحضارية، وانحلال القدوة والقادة، وظهور الأجيال المقلّدة للسابقين، مع شيوع الدِّعة والخمول والكسل الفكري، والتشرذم النفسي، وخُفوت البُوصلة الحضارية للدولة[٢]، ولكنَّ الثابت أن الثقافة الإسلامية حافظَت على استمرارها رغم انحطاط الحياة السياسية، بسبب الاستقلال النسبي للمجتمع المسلم عن صراعات الحكم والملوك، فالأمة كانت منفصلة عن السلطة، فلها أُطرها العقائدية والفكرية والسلوكية التي جعلَتها غير مندمجة تماماً مع السلطة، وتعزز الاستقلال من خلال مكونات المجتمع الأهلي العلمية ومراكز الثقافة المنتشرة في المساجد والمدارس وحلقات العلم[٣].

فعندما خففت البُوصلة الحضارية، خفتَت علاقة الثقافة الإسلامية بالثقافات الأخرى، فلم يعد هناك إلحاح واضح على التعلم والاستفادة، وربما يعود هذا إلى إحساس العلماء والعامة أن المتوارَث من السابقين أغلى وأهم، كذلك عدم وجود منافسة حضارية مع شعوب أخرى بحكم انعزال العالم الإسلامي وركون العلماء للراحة، وإعلاء شأن الموروث أو ما يمكن تسميتُه «ثقافة المتراس» التي تظن أنها بلغَت في مرحلة معينة من تطورها الاكتفاءَ التاريخي، فتتمَترس خَلْفها، وتعلو على الغير، وإذا هي احتاجَت إلى الغير

(١) المرجع السابق، ص٩٤، ٩٥ وانظر أيضاً: ص١٣٩.

(٢) على عتبات الحضارة، ص٦٧.

(٣) السلطة والمجتمع والسياسة: من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، وجيه كوثراني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٨م، ص٣٥.

لتتميز عنه؛ فإن هذا الغير -لدى بعض أتباعها - يصبح عدوًّا فيما يسمى الفكر الشمولي[١]، ونرى أن هذه المرحلة من حياة الثقافة لدى الشعوب حقيقية، وتحدُث عندما تشتد الأنا الجمعية، وتتعاظم إزاء الآخر الثقافي والحضاري، وقد أُصيبت بها كل الحضارات على تفاوتٍ فيما بينها، وكانت علامة أولى على جمودها أو انهيارها، ونحن نجد آثاراً لهذه الفكرة لدى بعض المنغلقين نفسيًا وفكريًا، الذين يرون كل آخرٍ عدواً، وكل جديدٍ حراماً، وكل وافدٍ رِجساً.

الحِقبة الرابعة:

وهي التي بدأت في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديَّيْن، ويمكن رصدُها في مراحل: فما بين مرحلة الصدمة الحضارية مع الاحتلال الفرنسي، ثم التحديث الكبير الذي قاده محمد علي في مصر، وبداية الاطلاع على الثقافة الغربية من خلال البعثات والأجانب الذين عاشوا في مصر، أي أن الثقافة الأخرى التي كانت هدفًا للتعرف عليها؛ هي الثقافة الغربية عامة، والفرنسية والإنجليزية خاصة.

وفي هذه الحِقبة وجدنا تَنازُع ثقافات عديدة، فالثقافة الإسلامية كانت متنازعة في لسانها ما بين العربية لغتها والتركية لغة الخلافة العثمانية، ولكن الإسلام كان الجامع بينهما، وجاءت مطالب المجددين العرب في أهمية إعطاء مساحات أكبر للعربية في الدواوين العامة للدولة، لذا نَظر كثير من مجددي الإسلام إلى دعوات القومية - بمرجعياتها الغربية - على أنها تفكيك للخلافة الإسلامية الجامعة لقوميات عديدة تحت عباءة ثقافية وسياسية وهوية

(١) الثقافة العربية والقرار السياسي، غسان تويني، ضمن كتاب: العالم العربي والثقافة، مجموعة كتّاب، ص٣١.

واحدة[١]، ولعل الجيل الأول الذي احتك مباشرة بأوروبا بالسفر والتعلم، كان يسير على هَدي الإسلام وثقافته، أمثال رفاعة الطهطاوي، وجمال الدين الأفغاني، وعلي مبارك الذي كان يؤكد مِراراً على أن الإسلام لا يمكن أن يكون عَقبة أمام التقدّم، بل أخرج أروع حضارة في الماضي، فعلينا التفريق بين أفكار مجتمعية (خرافات) ربَطها البعض بالدين، وبين الإسلام الحقيقي، ورأَى علي مبارك أن التقدم عملية متدرجة أساسها تطوير التعليم والأخذ بالعلوم وبما أبدعَته سائر الحضارات، خصوصاً في المخترعات المادية التي نحن في أشد الحاجة لها[٢]، وهذا عائد إلى كون هذا الجيل كان ذا قاعدة ثقافية إسلامية قوية، نتيجة تلقِّيَه العلوم الشرعية، بعكس الأجيال التالية التي جمعَت شَتاتاً وقشوراً من الثقافة الإسلامية، فما أسهل استلابها عند تعلّمها في الثقافة الغربية.

وقد ظهر - في هذه الحِقبة - عدد من المفكرين المؤمنين بالفكر القومي والفكر القُطْري؛ اعتبروا الحكمَ التركي سبب بلاء العرب والمسلمين، وعززوا الفكر الانفصالي القومي والإقليم، وبعضهم كان على صلة مباشرة بالمحتل الفرنسي أو الإنجليزي، وينشر في صحف تَدعمه قوى الاحتلال[٣].

(١) الصحافة والقومية العربية قبل العام ١٩١٤م، رشيد الخالدي، بحث منشور في كتاب: الحياة الفكرية في المشرق العربي ١٨٩٠-١٩٣٩، إعداد: مروان بحيري، ترجمة: عطا عبد الوهاب، مركز دراسات الوحدة العربية، ص٧٢، ٧٣.

(٢) الشرق والغرب في كتاب علم الدين لعلي مبارك، وداد القاضي، بحث منشور في كتاب: الحياة الفكرية في المشرق العربي ١٨٩٠-١٩٣٩، ص٤٦، ٤٧.

(٣) نجيب عازوري وكتابه: يقظة الأمة العربية، ستيفان ويلد، بحث منشور في كتاب: الحياة الفكرية في المشرق العربي ١٨٩٠-١٩٣٩، ص١١١ ، حيث نقل قولَ عازوري: «بلاد العرب للعرب، وكردستان للأكراد، والترك للترك..، أخرِجْ مصر من العروبة، لأن المصريين لا ينتمون للجنس العربي»، والثابت أن عازوري كان يهاجم الخلافة العثمانية لخصومة =

والمفارقة أن العديد من مروجي الثقافة القومية والقُطرية الضيقة، كانت مرجعياتهم غربية، واستندوا إلى نوازع نفسية خاصة لا إلى رؤية ثقافية شاملة تنهض بالأمة، وحصروا أمر النهضة في الاستقلال عن خلافة الأتراك، وغضوا النظر عن المحتل الأجنبي الغربي، وكان عداؤهم للخلافة العثمانية أشد من عدائهم للاحتلال الأجنبي، فلما سقطت الخلافة العثمانية؛ راحوا يدْعُون علانية إلى حذو خُطى الغرب الفكرية والثقافية، وهو ما نادى به طه حسين، وسلامة موسى، ولويس عوض، والماركسيون والليبراليون العرب، والمشكلة لدى هؤلاء؛ أنهم نصّبوا أنفسهم معبرين عن الثقافة العربية والإسلامية، زاعمين أنهم استوعبوها كاملةً، وهذا وهْم كبير سقطوا فيه ولا يزال يسقط فيه مَن شايَعَهم، فشتان ما بين «مثقفين عرب»، وما بين «الثقافة بمعناها الوجودي الاجتماعي»، والتي هي معرفة حقيقة كل شيء: الإنسان والكون، الخليقة والخالق، الخير والشر، والحق والباطل، وتَصير الثقافة مدنية وحضارة متى تدرَّج المجتمع في تذوُّق المعرفة، وهناك تراتب حضاري في ذلك بين الشعوب وفي داخل الشعب الواحد والثقافة الواحدة، وشتان بين المثقفين والثقافة الأصيلة والمنقولة، وهناك من تمَترس وراء الوافد؛ فهناك مثقفون وهم أفراد، وهناك ثقافة وهي جماعية متوارثة[1].

ولاشك أن في هذه الحِقبة - المعيشة الآن- تقدماً في الحياة المادية والحضارية والمدنية العربية، انعكس على الثقافة العربية، فظهرت روائع أدبية

=

شخصية، وبتحريضٍ مباشر من الاحتلال الفرنسي في لبنان عندما كان يقيم في بلده لبنان، ثم في مصر بتأليب من الاحتلال البريطاني، وقد أسس في القاهرة محفلاً ماسونياً، وانظر: ص١١٠.

(١) الثقافة العربية والقرار السياسي، غسان تويني، ضمن كتاب: العالم العربي والثقافة، ص٢٨.

وفنية واختراعات علمية.

ولكنها ظلت في المجمل تنظر للآخر - الغربي - نظرة انبهار، فتجعله ديدناً لها، ومعياراً لتقدّمها، فتعاظمَت حالة الاستلاب الحضاري، وتراجع الاعتزاز بالثقافة الإسلامية بوصفها مصدراً ثقافياً في محاورة الآخر والأخذ منه.

والأهم من جهة المثقفين: أن مَن تسيّد الساحات الثقافية والواجهات الإعلامية هم أنصاف المثقفين، وتم إقصاء المثقفين الحقيقيين، إما بفعل اختلافهم مع السلطة (لدواعٍ سياسية أو إيديولوجية)، أو بفعل إقصاء المثقف الباهت للمثقف الحقيقي، وقد تعاظم في الوقت نفسه دور التبريريين، الذين اقتصروا على خدمة السلطة ثقافياً، أو هؤلاء المثقفين الذين يَلوكون نظريات وإيديولوجيات دون وعْيٍ كافٍ بخصائص مجتمعاتهم وظروفها الذاتية، أما الدعاة والمخلصون والمجددون؛ فيعيشون في عزلة نفسية، فالصراخ من الأشباه يَطغى على صوتهم [1].

فباتت الصورة الآن فرديةً متعاظمة، تؤازرها نزعات قُطرية، وبدَت الصحوة الإسلامية - رغم مِن كونها ظاهرة صحية- أقربَ إلى العودة للأصول النصية في العبادات والمعاملات والأخلاق، وغاب عنها البعد الثقافي المعرفي الكوني، الذي يجعل المسلِم مفتخراً بموروثه، حريصاً على النهل منه، ساعياً إلى الإضافة والبناء الحضاري، وهذا عائد لغياب مشروع ثقافي سياسي اجتماعي يجمع الأمة، ويُخرج شعوبها من الفردية إلى الجماعية، ومن القُطرية إلى الوحدوية، ومن الاستلاب إلى الاعتزاز.

---

(١) المثقف العربي والسلطة، د. أسعد عبد الرحمن، بحث ضمن كتاب: الثقافة العربية في مواجهة المستقبل، منشورات المجمع الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٩٢، ٩٣.

مستقبل الثقافة الإسلامية مع الثقافات الأخرى:

يمكن أن نقرر أن الفكرة هي الأساس الموّجه للثقافة والحضارة، وتكاد تكون الحضارات تاريخ أفكار مبدعة وملهمة، وما أعظمها فكرةً إذا كانت صادرةً عن منظومة ثقافية شاملة، أساسها الإسلام دينًا، والشريعة منهجًا، والتراث العظيم متكَئًا، والحضارة الإسلامية السابقة نموذجًا، في التطبيق الحي مع الأمم والثقافات الأخرى، ولن يكون هناك تواصل فاعل مع الثقافات الأخرى، إلا إذا عرفنا أين نقف تحديداً في ثقافتنا، حتى نستطيع أن نستقبل منها بمعايير، ونستفيد منها في ضوء احتياجاتنا النهضوية، وما يمكن أن نستفيد منه في تطوير ثقافتنا واعتماد مفهوم الندية لا الاستلابية أمام الثقافات الأخرى، دون انبهار أو انكسار.

ولاشك أن الحل لن يكون من خلال انتظار البطل المخلِّص الذي يأتي فيقود الناس ويتوحّدون خلفه، وإنما السبيل فيما يسمى شيوع «**الفكرة الحضارية**» والتي تَعني: فكرة حية وعقيدة مفسّرة للحياة، تتجسد في صفوة قوية أمينة، تمتد في عمق الأمة، وتتحقق في نظام اجتماعي متكامل، يفرضها مصدراً للقيم، وقوةً لإدارة الواقع، وطاقةً لإدارة التحديات، وتحركها نحو هدف واحد، ومصالح مشتركة، وتُدخلها بذلك طَور الفعالية التاريخية[1].

فالفكرة الحضارية وِفقًا للمفهوم المتقدم؛ لن تقتصر على فردٍ أو بطل أو زعيمٍ تنتهي بانتهائه أو وفاته، وإنما ستكون منتشرة كحالةِ وعيٍ بين أبناء الأمة، يستلهمها العلماء في بناء مشروعات علمية وبحثية تعين الأمة في نهضتها، ومن ثم تكون مرجعية لهم في العلاقة مع الثقافات الأخرى، وبعبارة أخرى: كيف نتعامل مع الثقافات الأخرى دون أرضية ثقافية صلبة نقف عليها؟

---

(١) على عتبات الحضارة، ص٣٥.

وفي التخطيط لمستقبل ثقافتنا، علينا أن ندرك أننا - تحت قصف العولمة - نحتاج إلى حماية هذه الثقافة والذَّوْد عنها، وغرْسها بشكل جيد في نفوس الأجيال الصاعدة، فالثقافة هي الوعاء السياسي الذي تتعبأ منه الدولة والأمة، ومنها تتكون الثقافات الوطنية، فالعولمة استحضرَت معها نظاماً ثقافياً مسيطراً، وسائله سمعيّة بصريّة، تتجلى في عشرات الامبراطوريات الإعلامية التي تبُث ملايين الصور يومياً، وتتخذ من الثقافة- الغربية عامة والأمريكية خاصة - منطلقاً لها، وتسعى إلى بسط السيادة الثقافية على الشعوب وتغيير العقول [1]، فما أسهل اختراق الشعوب المستلَبة وجعْلها دائرة في فلك الثقافة الغربية وما تنتجه مادياً ومعنوياً، فتصبح شعوباً مستهلِكة اقتصادياً وثقافياً.

وختاماً،،

إن تمتين الثقافة الإسلامية وتجديدها؛ لا يسير بشكل مؤسسي وإنما بجهود فردية، ولا بتخطيط مسبق وإنما بأعمال ارتجالية، وهذا يحتاج إلى روح جديدة تسري في الأمة، تجمع الفردي في منظومة جمعية، وتضع الأهداف العامة والمرحلية المستقاة من الموقف الثقافي الراهن، وما تحتاجه الأمة في واقعها، وليس ما يقدمه الغرب لنا من استشارات عبر خبرائه (مستشرقيه) أو مستغربينا، على أن تكون الخطط متفاوتة الأبعاد زمنياً؛ جاذبة لكل مخلص دؤوب، باحثة عن المبدعين والمضيفين والمثقفين الحقيقيين، دون إقصاء لاعتبارات سلطوية أو شخصية.

---

(١) انظر للمزيد: العولمة والهوية الثقافية: عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة؟، عبد الإله بلقزيز، بحث ضمن كتاب «العرب والعولمة»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٠م، ص٣١١-٣١٥.

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب:

- الأدب القصصي عند العرب، موسى سليمان، مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٤، ١٩٦٩م.
- الإسلام كبديل، مراد هوفمان، ترجمة: غريب محمد غريب، مكتبة العبيكان، الرياض، ط٢، ١٩٩٧م.
- الإنسان في الفلسفة الإسلامية (نموذج الفارابي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة، ٢٠٠٥م.
- الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، نشر المنظمة للتربية والعلوم والثقافة،(إيسيسكو) الرباط ١٩٩٧م.
- تاريخ البشرية، أرنولد توينبي، ترجمة: د. نقولا زيادة، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٦م.
- التعامل مع غير المسلمين: أصول معاملتهم واستعمالهم، دراسة فقهية، د. عبد الله بن إبراهيم الطريقي، منشورات: دار الهدي النبوي (مصر)،دار الفضيلة (الرياض)، ط١، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، للشيخ محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م -التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، الأعمال الكاملة، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٨م.
- الثقافة الإسلامية (المسلم وتحديات العصر)،محمد أبو يحيي، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، فلسطين، ٢٠١٠م.

- الثقافة التفسير الأنثروبولوجي، آدم كوبر، ترجمة: تراجي فتحي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، مارس ٢٠٠٨م.
- الثقافة العربية في مواجهة المستقبل، منشورات المجمع الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- ثقافة قبول الآخر، ممدوح الشيخ، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، ٢٠١٢.
- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، للإمام محمد بن أحمد القرطبي، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت.
- الحضارات في السياسة العالمية (وجهات نظر جمعية وتعددية)، تحرير: بيتر جي كاتزنشتاين، ترجمة: فاضل جتكر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، فبراير ٢٠١٢م.
- الحياة الفكرية في المشرق العربي ١٨٩٠-١٩٣٩، إعداد: مروان بحيري، ترجمة: عطا عبد الوهاب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،ط١، ١٩٨٣م.
- دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية، أ. هاني المبارك، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، بيروت، دمشق، ط١، ١٩٩٦م.
- دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، د. علي محمد الصلابي، دار ابن الجوزي، القاهرة، ١٤٢٧هـ.
- العصر العباسي الأول (من سلسلة تاريخ الأدب العربي)، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

- السلطة والمجتمع والعمل السياسي: من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، وجيه كوثراني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٨م.
- شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ترجمة فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار الجيل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٨، ١٩٩٣م.
- العالم الإسلامي في العصر المغولي، برتولد شيولر، ترجمة: خالد أسعد عيسى، دار حسان، دمشق، ط١، ١٩٨٢م.
- العالم العربي والثقافة، مجموعة كتّاب، منشورات المجمع الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٥م.
- العرب والعولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٠م.
- العصر الإسلامي (سلسلة تاريخ الأدب العربي)، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة العشرون، د. ت.
- العصر الجاهلي (تاريخ الأدب العربي)، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية والعشرون، د. ت.
- العصر العباسي الثاني (من سلسلة تاريخ الأدب العربي)، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة ١٢.
- على عتبات الحضارة: بحث في السنن وعوامل التخلق والانهيار، د. بتول أحمد جندية، دار الملتقى للطباعة والنشر، حلب، سورية، ط١، ١٤٣١هـ، ٢٠١١م.
- العولمة وعالم بلا هوية، د. محمود سمير المنير، دار الكلمة للطباعة والنشر، المنصورة، مصر، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م

- المجتمع العربي المعاصر: بحث استطلاعي اجتماعي، د. حليم بركات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤.
- المسلمون وأوروبا، التطور التاريخي لصورة الآخر، د. قاسم عبده قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،ط٢، ٢٠١٢م.
- معالم على طريق تحديث الفكر العربي، د. معن زيادة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، يوليو ١٩٨٧م.
- مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، للإمام أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، دراسة وتحقيق: د. السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.
- مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، دار الشروق، ط١، ١٩٨٦م.
- مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام، د. أحمد سليم سعيدان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، أكتوبر ١٩٨٨م.
- نحن والحضارة الغربية، أبو الأعلى المودودي، دار الفكر، بيروت، د. ت.

ثانياً: الدوريات والمواقع الالكترونية:

- الأنا والآخر وهدم النمطية، د. محمد فايز الطراونة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج٢٧، العدد ٣، يناير / مارس ١٩٩٩م.
- تأثير الثقافة العربية وإنجازاتها على الثقافات الأخرى، د. أحمد محمد الأصبحي، جريدة ٢٦ سبتمبر، العدد ١١٦٦، صفحة أدب وثقافة، السبت ١٤ / ٧ / ٢٠١٤.
-تحليل خطاب المقدمات في كتاب كليلة ودمنة، د. مصطفى عطية جمعة، مجلة العرب، الصادرة عن مركز حمد الجاسر الثقافي، الرياض، يوليو - أغسطس ٢٠١٤م.
- عن ألف ليلة وليلة، د. أحمد كمال زكي، ضمن ملف عن ألف ليلة وليلة، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، شتاء ١٩٩٤م.
- مفهوم الثقافة الإسلامية وتحدياتها، صباح محمد جاسم، مجلة ديالي للبحوث الإنسانية، جامعة ديالي، العراق، العدد ٤٤، ٢٠١٠م.